

6949

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

UAR-6949 Tāhāt Husayn,

اقرأ

طه حسين

صوت أبي العلاء

دار المعارف بمط

صَوْتُ أَبِي الْعَلاءِ



طه حسين

صوت أبي العلاء

٢٣ اقرا

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٣ - الطبعة الثالثة

PJ

7750

.A25

Z86

1965

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م

مقدمة

العالم العربيّ كله يذكر أبا العلاء في هذه الأيام ذكرى
محبّ له ، معجب به . والعالم الغربيّ يشارك في هذا الذّكر
الذي يملؤه الحب والإعجاب . وقد كان أبو العلاء سيّئ الظن
بنفسه ، سيّئ الظن برأيه ؛ وهذه آية التواضع ومعرفة الإنسان
قدّر نفسه . وكان أبو العلاء سيّئ الظن بالناس محبّاً لهم مع
ذلك رفيقاً بهم ، ينصحهم ما وجد إلى نصيحهم سبيلاً ، يلين
لهم حيناً ويعنف بهم أحياناً ؛ وهذه آية الفطنة وذكاء القلب
والتعمق لحقائق الأشياء . وكان أبو العلاء سيّئ الظن بالتاريخ ،
وبما يسميه الناس خلوداً في التاريخ ، وكان أبغض شيء إليه
أن يُقدّم الإنسان على الخير ليُنذّر في حياته أو بعد موته بأنّه
خير ، أو يحجم الإنسان عن الشر ليذكر في حياته أو بعد
موته بأنّه تقي نقيّ . إنّما كان أبو العلاء يحب أن يُقدّم على
الخير لأنّه الخير ، وأن يحجم عن الشر لأنّه الشر ، لم يكن يكره
شيئاً كما كان يكره انتظار الجزاء . كان عفيف النفس والخلق
والرأى والعقل جميعاً . ومن أجل هذا لم يكن حلو الأثر في

في نفوس الذين يعرفونه ولا يألّفونه ، ولم يكن عَذَبَ الصوت في آذان الذين يسمعون له دون أن يُطِيلُوا الاستماع إليه ، ولم يكن محبب النفس إلى الذين يتصلون به ، فيرون عنه هذه الحشونة التي تأتي من صراحة الخلق ، وهذه الغلظة التي تأتي من إيثاره للحق .

وأراد أبو العلاء أن يترجم عن نفسه ، فترجم عنها كما استطاع : كانت نفساً حازمة صارمة ، فترجم عنها في حزيمة وصرامة ، وازورّ الناس عن معانيه ، ثم كانوا عن ألفاظه أشدّ ازوراراً . ضاق به أكثرهم ، ولم يكد يأنس إليه منهم أحد ، وارتفعت معانيه وألفاظه عن أكثرهم ، ولم يكد يخلص إلى تلك ولا يطمن إلى هذه إلا الأقلون عدداً . ومع ذلك فأبو العلاء فذٌّ في الأدب العربيّ كله . وصل من حقائق الأشياء إلى ما لم يصل إليه أديب عربيّ قبله أو بعده . ومع ذلك فأبو العلاء فذٌّ يُعَدُّ من هذه القلة الضئيلة التي يمتاز بها الأدب العالميّ الرفيع على اختلاف العصور وتباين أجيال الناس وتفاوت حظوظ هذه الأجيال من الحضارة ورقّ الشعور . فإذا فخر الأدب اليونانيّ القديم بأبيقور ، وإذا فخر الأدب اللاتينيّ القديم بلوكريس ، وإذا فخرت الحضارة الأوروبية الحديثة بأدبائها وفلاسفتها

المتشائمين ، فمن حق الأدب العربي أن يفخر بأبي العلاء ؛
فليس أبو العلاء أقل من أحد من هؤلاء الممتازين خطراً ولا أهون
منهم شأنًا ، ولعله أن يمتاز منهم بفنون من الأدب والعلم لم يظفروا
بها ولم يشاركوا فيها . فقد كان أبو العلاء فيلسوفًا عميق الفلسفة ،
صادق النظر في أمور الحياة والأحياء . وكان أبو العلاء شاعرًا ،
رفيع الشعر نقيه خلا به ، يبلغ به من الروعة الهائلة في كثير
من الأحيان ما لم يبلغه الفحول من شعراء العربية في قديمها
وحديثها . وكان أبو العلاء أديبًا ، وعى من الأدب ما لا نعرف
أن أحداً من أدباء العرب وعى مثله . وكان أبو العلاء صاحب
خيال نفاذ ، يصعد إلى أرق ما يستطيع الخيال أن يبلغ ،
وينفذ إلى أعماق ما يستطيع الخيال أن ينفذ إليه . ثم كان أبو العلاء
فوق هذا كله إنسانًا ممتازًا بأدق ما للكلمة الامتياز من معنى :
لم يؤذ أحداً ، وإنما أحسن إلى الناس جميعاً بما قدم إليهم من
نصح ، وبما أورثهم من هدى ، ثم سار سيرة نقية لم يسرها
أحد من المسلمين ؛ فارتفع عن الصغائر إلى أرق ما يستطيع
أن يرتفع ، وتنزه عن الشر والإثم كأحسن ما يستطيع الإنسان
أن يتنزه عنهما .

فإذا ذكره العالم العربي الآن محبةً له معجباً به ، بعد أن

مضى على ميلاده عشرة قرون ، وإنما يردّ هذا العالم إليه أيسر
حقه وأهونه ، وإنما يرد إلى أبي العلاء حقه كاملاً يوم يحبه
الناس ويُعجبون به حباً وإعجاباً لا يقومان على الغرور والافتخار
بالماضى القديم والاعتزاز بالتراث المجيد ، فلم يكن أبو العلاء
يحفل بشيء من هذا ، وإنما يقومان على قراءة آثاره وفهمها
ونقدّها . وليس من المهم أن نقبل آراءه ومعانيه ؛ فهذا أهون
الأشياء . إنا لنعجب بأفلاطون وأرسططاليس وبكثير من الشعراء
والفلاسفة والعلماء فى اللغات المختلفة والآداب المتباينة ،
وما أكثر ما نرفض من آرائهم . فالحياة فى تغير مستمر ، والعقل
فى رقى متصل ، والإنسان متواضع مهما تبلغ به الكبرياء .
فليس على النوابغ بأس ألا نقبل منهم كل ما تركوا لنا ، وإنما
علينا نحن البأس كل البأس ألا نقرأهم ولا نفهمهم ولا ننقدهم
ولا نصنّدهم فى حكمنا عليهم عن القراءة والفهم والنقد .
وقد كتبت عن أبي العلاء ما أذن الله لى أن أكتب ، وأظن
أنى قد عرّفته بعض التعريف إلى هذا الجليل الحديث . ولكنى
لم أؤد إليه من ذلك إلا بعض حقه ، وما زالت له على حقوق
كثيرة أرجو أن يعيننى الله على تأدية بعضها ؛ فقد عرّفت
أبا العلاء إلى خاصّة الناس ، وأحب أن أعرفّه إلى عامتهم ،

وأن أعرفه إلى عامتهم بالترجمة الصحيحة عنه ، والتفسير الدقيق لشعره . فلو قد نشرت اللزوميات في عامة المثقفين لما فهموها أكثرهم ؛ لأن أبا العلاء لم ينشئ اللزوميات لعامة المثقفين . بل لست أدري ! لعله أن يكون قد أنشأها لنفسه ، وللذين يرقون إلى طبقته من أصحاب العلم الكثير والبصيرة النافذة . فما الذي يمنع أن أيُّمُّ اللزوميات للذين لا يستطيعون أن يقرءوا شعرها العنيف الذي لا يخلو من غرابة ، والذي تَزَوَّرَ عنه أذواق المتعمقين للأدب العربي ، فضلا عن الذين لم يأخذوا من هذا الأدب إلا بأطراف يسيرة قصيرة .

وأنا أعلم أن كثيراً من الناس سينكرون على هذه الترجمة ، سينكروها بعضهم لأنها تُشيع التشاؤم وتُسبِّغ على الحياة ألواناً قاتمة ، وما ينبغي أن نُشيع التشاؤم في الشباب ، ولا أن نصوِّر لهم الحياة إلا مشرقة باسمه . ولكني مع ذلك لا أشفق على الشباب من تشاؤم أبي العلاء ؛ فالحياة أقوى وأنضر من تشاؤم المتشاؤمين . وما ينبغي أن تكون الحياة حلوة مسرفة في الحلاوة ؛ فربما دعا ذلك إلى شيء من الغشيان والإسراف في الرضا والابتسام ، قد يجعل الحياة فاترة خائرة قليلة الحظ من هذه الشدة التي تكون الرجولة ، وتخلق المروعة ، وتجعل الشباب قادرين على أن يلقوا المحن والخطوب بشيء من الجحكد والشجاعة والصبر .

والشباب في حاجة إلى شيء من التشاؤم يزهدهم في الحاضر، ويرغبهم في المستقبل، ويدفعهم إلى الإصلاح، ويزين في قلوبهم حب الرقي. وليس شبابنا في حاجة إلى أن يلتمسوا الشاؤم عند «نتشه» و «شوبنهاور»، ولا إلى أن يلتمسوا النقد الخلقى والاجتماعى عند «لارشفوكو» وأمثاله من نقاد الأخلاق والاجتماع، وعندهم أبو العلاء وقد امتلأت آثاره بالنقد السياسى والخلقى والاجتماعى، وبتصوير الرجولة ومثلها العليا. فليلتمس شبابنا هذه المعانى عند أسلافهم من شعراء المسلمين وفلاسفتهم، وعند أبي العلاء منهم خاصة.

وليقرأ شبابنا بعد ذلك هذه الحواطر والمعانى والآراء عند الفلاسفة والأدباء المتشائمين في اللغات الأخرى، قراءة الغنى المستطلع، لا قراءة المعدم الذى يلتمس الثروة عند غيره والثراء منه قريب. وسينكر قوم هذه الترجمة؛ لأنها لون جديد من ألوان الأدب العربى الحديث. أليس غريباً أن نترجم إلى العربية شعراً هو من صميم العربية؟ بلى! ليس ذلك غريباً؛ وإنما الغريب ألا نترجم هذا الشعر. فما دامت الثقافة تتسع وتنتشر، وما دام جمهور المثقفين يعظم ويصغى من يوم إلى يوم، فلا بد من أن نقرب إليهم أدبنا القديم، ونزينة في قلوبهم، ونصله

بأذواقهم ؛ فليس كل الناس قادراً على قراءة اللزوميات ،
والفصول والغايات ، ورسالة الغفران ، وفهمها . ومع ذلك
فيجب أن يعرف المثقفون جميعاً هذه الآثار وغيرها معرفة حسنة ،
وإلا انقطعت الصلة بين الحديث والقديم ، وأصبح مكان الأدب
العربي القديم من المثقفين المعاصرين مكان الأدب اللاتيني من
الفرنسيين والإيطاليين . والله يعصم الأدب العربي القديم من
أن تُقَطَّع الصلة بينه وبين الأجيال العربية إلى آخر الدهر .
وأنا مع ذلك أذيع هذه النماذج من ترجمة اللزوميات ، ومعها
النصوص الكاملة من شعر أبي العلاء . فمن استطاع أن يقرأ
هذه النصوص دون أن يحتاج إلى ترجمتها فليفعل وخلاًه ذم !
ومن استطاع أن يقرأ الترجمة وعجز عن قراءة النص فليفعل ،
وحسبه ما يظفر به من الفائدة . ولكن قوماً بين أولئك وهؤلاء
سيقروءون النص وسيقروءون الترجمة ، وسيوازنون بين الصوت
والصدى . وما أشك في أنهم سيجدون صوت أبي العلاء أعذب
في نفوسهم وأحب إلى قلوبهم من صدهاء الذي تصوّره الترجمة ؛
لأنني أنا أجده صوت أبي العلاء أعذب في النفس وأحب إلى
القلب من كل صوت ومن كل صدى .

١

لله أهل الفضل والعلم ما أجدرهم بالرحمة وأخلقهم بالثناء !
 إني لأراهم غرباء في بلادهم ، مجفونين من أقاربهم ، منبوذين
 من ذوى معرفتهم . وإني لأرى الفقير قد ضرب عليهم رواقه ،
 وألقى عليهم كسلكه ، فحرمهم لذة الأغنياء ، بسبب الخمر ،
 وسبب النساء ، وبالع في إذلالهم والغص من أقدارهم ، حتى إن
 أحدهم لينال أقل القوت وأدنى العيش ، فيحسبه عطاء موفوراً ،
 أو نعمةً مسبغةً عليه .

وأأسفاه لنار شيبتي حين تخبو ، فلن أجدها سلسة
 ولا عزاء مهما ترتفع بي المنزلة ، ولو نصّ لي خباء بين النجوم .
 ذلك أن الشبية وحدها هي التي تتيح لي اقتضاء لذاتي واكتساب
 حاجاتي . فإذا انقضت فلا أمل في لذة ، ولا مطمع في رضاء
 حاجة . أليس لكل عمل قدرٌ قدّر به ، ووقتٌ أُتيح فيه ، فليس
 بعد الخامسة عشرة طفولة ولا صبا ، وليس بعد الأربعين مرح
 ولا مجون .

أجيدك لا يقنعك ما يتاح لك في هذه الدنيا من حظ !

رفّه عليك ، واقصد في أطماعك ، ووازن بين ما تسدى وما
يُسدى إليك ؛ فلو قد فعلت لتبينت أنك لا تُسدى شيئاً ،
وأن الذى يُسدى إليك كثير .

إنما مثل ما يصيب الناس من حسن الحظ وسوئه - مثل
الأرض التى يتاح لبعضها أن ينبت ذكىّ النبت ورائعه ،
ولا يتاح لبعضها الآخر إلا أن ينبت غليظ النبت وفجّه ،
ولا يعطى منه إلا الردىء الممقوت .

تواصل جبل النساء ما بين آدم وبينى ، وكان ذلك حمقاً
تجنبته ، وغياً برئت منه ، فقطعت هذا الجبل ولم أصله ،
وأعرضت عن الزواج فلم أعقب فى هذه الأرض نسلاً ، إنما كان
اتصال النسل عَدْوَى شاعت فى الناس كما يعدى المتثائب
جاره ! أما أنا فقد برئت من هذه العدوى وعُصِمْتُ من
آثارها ، فلم أثناب حين ثناب جليسى .

إيه للناس ! لقد عرفتهم حق المعرفة ، وبلوتهم أحسن
البلاء ، فرأيتهم كلهم هباء ، ورأيت أمرهم كله باطلا .
أفترانى زهدت فيهم إلا لأنى بهم عليم .

ليتنى استطعت أن أستدرك ما مضى ، وأتلافى ما فات ؛
إذاً لأنكرت من أمرى بعض ما عرفت ، ولغيرت من مواصلتى

القديمة للناس نفوراً منهم وانقطاعاً عنهم . ولكن أين السبيل إلى ذلك وقد اشتعل الرأس شيباً كأنه النار تأخذ أطراف القصب ! إنما هو القضاء يجب الإذعان له والرضا به ؛ فالقضاء إذا حُسم قص جناح القطا فلا تنهض ، وقلتم أظفار السباع فلا تصول ، وأنت عن فهم هذا القضاء عاجز ، ومن الوصول إلى سره ممنوع . ألا تراه يكفّ بأس ذى البأس ، فيمنعه من البطش حين يريد البطش ، ويحتفظ للسهل بسهولته وللحزن بحزونه مهماً تتعاقب عليهما الأحداث . انظر إلى جبل رَضْوَى ما زال قائماً على كثرة ما نطحته الجيوش ، وانظر إلى أرض قبياء ما زالت قائمة على كثرة ما اختلف عليها من الرايات والأعلام . أذعن إذأً واستسلم ، ولا تحاول فهمهما ولا تأويلا ؛ فإن القضاء لا يخضع لفهم ولا تأويل .

إنما الحياة شر ، فلننصرف عن هذا الشر . وإنما الوجود بؤس ، فلنقطع أسباب هذا البؤس . وإنما الآباء جُنَاة على أبنائهم مهماً يبلغوا من علو المنزلة وارتفاع المكانة ، ومهما يتسح لهم من التفوق والسلطان . ويزيد جناية الآباء على أبنائهم حدة ، ويزيد بُعد الآباء عن أبنائهم شدة ، أن يتاح لهؤلاء الأبناء من الذكاء والنجابة ، ما يكشف لهم عن هذا الشر

العظيم الذى دفعهم آباؤهم إليه حين منحوهم الوجود ، واضطروهم إلى الحياة ، فورطوهم فى مآزق لا مخرج لهم منها ، ومصاعب لا سبيل إلى اجتيازها ، ومشكلات لا أمل فى حلها .
خذ حذرک ، ولا تسمع لكل ما يقال ، ولا تستجب لكل ما تدعى إليه . أسئ ظنك بأدب الأدباء ؛ فإنهم لا يدعون إلا إلى المين ، ولا يرغبون إلا فى الباطل ، ولا يهدون إلا إلى الضلال .

أترید أن تعرف الحق فاستمع لى ، إنما نحن صيد يطلبنا الموت حيثما اتجهنا ، ويظفر بنا حيثما اعتصمنا ؛ فلا تفرق ولا تتجبن ، وأقدم على ما ترى الإقدام عليه ؛ فلن يمنحك الفرق خلوداً ، ولن يجنبك الجبن موتاً .

فكر أى فرق بين القوى إذا أدركه الخوف ، وبين الضعيف إذا مسه الهلع ! فكر ما خطب الطي إن أشفق من الموت ، وفيم تنكر عليه هذا الإشفاق ، إذا لم يكن الأسد المصور بمأمن من الخوف والإشفاق ؟

أولو الفضل فى أوطانهم غرباء
تشد وتنأى عنهم القرباء
فما سبّسوا الراح الكميت للذة
ولا كان منهم للخيراد سبباء
وحسب الفتى من ذلة العيش أنه
يروح بأدنى القوت وهو حباء

إذا ما خبت نار الشبيبة ساعني
 أرابيك في الود الذي قد بذلتَه
 وما بعد مر الخمس عشرة من صبا
 أجذك لا ترضى العباة ملبسًا
 وفي هذه الأرض الركود منابت
 تواصل حبيل النسل ما بين آدم
 تشاءب عمرو إذ تشاءب خالدا
 وزهدني في الخلق معرفتي بهم
 وكيف تلافى الذي فات بعد ما
 إذا نزل المقدار لم يك للقطا
 وقد نطحت بالهيش رضوى فلم ت
 على الولد يجنى والد ولو أنهم
 وزادك بعداً من بنيك وزادهم
 يروون أباً ألقاهم في مؤرب
 وما أدب الأقوام في كل بلدة
 تتبعنا في كل نقب ومخرم
 إذا خافت الأسد الحماض من الطبا

ولو نوص لي بين النجوم خباء
 فأضعف إن أجدي لديدك رباء
 ولا بعد مر الأربعين صباء
 ولو بان ما تسديه قيل عباء
 فمنها عائد ساطع وكباء
 وبينى ولم يوصل بلامى باء
 بعدوى فما أعدتني الثوباء
 وعلمني بأن العالمين هباء
 تلتفع نيران الحريق أباء
 نهوض ولا للمخدرات إباء
 بل ولز برايات الحميس قباء
 ولأه على أمصارهم خطباء
 عليك حقوداً أنهم نجباء
 من العقد ضلت حلة الأرباء
 إلى المين إلا معشر أدباء
 عنايا لها من جنسها نقباء
 فكيف تعدى حكمهن ظباء

دع ما استقرّ في طباع الناس من إهمال الحق وإيثار الباطل
اغتراراً بالظاهر الكاذب : من لفظ خادع ، أو وهم شائع ، أو
خرافة باطلة . فإنما حياة الناس ألوان من تلك الأباطيل المحترمة
كأنها حق . منها ما أجمع الناس عليه في كل جيل وفي كل
موطن من تكريم الجثّة بعد الموت مع أنها صائرة إلى التغير
والاستحالة وصائرة هباءً بعد حين ، وحرصهم على الحياة
واغترارهم بها وانخداعهم بلذاتها واندفاعهم خلف الآمال
والأمانى ، كأنهم خالدون ، مع أن الموت لا بدّ منه ،
ولا مندوحة عنه .

وما الروح في الجسم إلا كالراح في الدنّ ، لكل مقتض
يبتغيها ، وطالبٌ يرغب فيها . فطالب الراح الإنسان ، وطالب
الروح الموت .

إن بعض الأدعياء ليعيروننا لفظ المَعَرَّة ، يزعمون أنها
مشتقة من العَرَّ (الحرب) . فانظر إلى سخف الناس وما
يتورّطون فيه من الانخداع بالأسماء ، والاندفاع فيما تدعو إليه

من رعبه أو رهبة غير حافلين بالحق ولا ناظرين فيه . لو أن
للأسماء أثراً في الوجود والحس ، لكانت الأسود إنما تستمد
إبائها من أجساماتها التي تسكنها وهي قَصَب الأبناء ، ولكان
أهل يثرب قد أصابهم التثريب والعيب ، مع أنهم أحقّ
الناس بالمدح والمثوبة ، لما جالدوا عن الدين وذاذوا عن حوضه ،
بضرب يطير الفرخ عن وكر أمه ، ويبطل مزية الدُرْع
فيردّها كالقميص لا تُغنى غناء ، ولا تدفع بلاء . ولو كان
ذلك حقاً لكان اسم ذى نَجَب - وهو موضع بجزيرة العرب -
علامةً لنجاسة سكانه ونبوغ أبنائه . أَجَلْ ! إن ذلك باطل ،
مصدره فساد العقول ، ومرض القلوب ، وانحراف الأمزجة .
وإنك لترى لفظ الدين والخير أشيع الألفاظ بين الناس ،
يتخذونهما طريقاً إلى الحياة والغنى ، وجنّة من الموت والفاقة ،
مع أن معنى الدين عزيز لا ينال إلا بالكد ، ولا يُدْرَكُ إلا
بالمحاولة ، ولا يسمو إليه إلا من أعدّ له العُدّة من جهاد بالنفس
والقوة والمال . وما كنت لأخذ بلفظ الخير ، فأزعم بعد ذلك أنى
خير ، وإن طالما ردّ الخطباء هذا اللفظ ولا كتبه أفواههم .
إنما الخير معنى يؤثر في القلوب والعقول ، وتظهر آثاره في
الأعمال ، لا لفظ تلوكه الأفواه وتذهب به الرياح .

وهل رأيت أضعف عقلا ، أو أسخف رأياً ، أو أضل حِلماً ،
 أو أسفه نفساً ممن يثفزع ويتشام ، أو يستبشر ويتفاعل بالألفاظ
 الخادعة ، أو الأمور التي لا أثر لها في عمل الطبيعة ! تلك
 الأعرابية تفزع وترتاع حين تعرض لها نواعب الغريبان أو أسراب
 الظباء ، مع أن الداهية قد تسلم بالحي البصير الحازم ، تفاعل أو
 تشام ، لا يؤثر ذلك في قدر ، ولا يدفع ذلك شيئاً من البلاء .
 وأولئك قيس بن عيلان أعداهم الغنى والثروة ، فعادوا من
 أثرياء الناس وأهل الغنى منهم ، ولولا أن سبق بذلك قضاء
 محتوم وقدر مكتوب ، لما ورّيت لهم زندق ، ولا كان لهم رفق ،
 ولعادوا إلى ما كانوا فيه من الفقر المدقع ، يُغنيهم رعي الكلاء ،
 ويقنعهم الحصول على أدنى القوت ، مختلفين فيما بينهم ،
 لا يجمعهم نظام ، ولا يلمّ شعنتهم قانون ، وإنما هو الغلب
 والقهر ، وهو السلطان والاستبداد .

تكرم أوصالُ الفتى بعد موته وهنّ إذا طالَ الزمانُ هباء
 وأرواحنا كالراح إن طال حبسها فلا بدّ يوماً أن يكون سبّاء
 يعيرُنَا لفظَ المعرّة أنها من العرّ قومٌ في العلا غرباء
 فإن إباءَ الليث ما حل أنفه بأنّ مَحَلّاتِ الليثِ أباء
 وهل لحق الثريب سكان يثرب من الناس لابل في الرجال غباء

هم ضاربوا أولادَ فُهر وجالدوا
ضارباً يطير الفرخ عن وكر أمه
وذونجب إن كان ما قيل صادقاً
هل الدين إلا كاعبٌ دون وصلها
وما قبلت نفسي من الخير لفظه
تفزع أعرابيةٌ أن جرت لها
وما الأربى للحى إلا مُسفةٌ
تعادت بنوقيس بن عيلان بالغنى
ولولا القضاء الحتم أخبى واقد
وعادوا إلى ما كان إن جاد عارض
يبيئون قتلهم بأكثر منهم

على الدين إذ وشى الملوكة عباء
ويترك درع المرء وهي قباء
فما فيه إلا معشرٌ نجباء
حجابٌ ومهرٌ معوزٌ وحباء
وإن طال ما فاهت به الخطباء
نواعبٌ يستعرضنها وظباء
على أنهم في أمرهم أرباء
فتابوا كأن المسجد الشؤباء
ولم يُبن حول الراقدين خباء
رأوا أن رعيماً في البلاد رباء
وإن قتلوا حرّاً فليس يُسباء

شيئاً من الفطنة ونفاذ البصيرة ؛ فإنما الأمر بينك وبينى
يقوم على الرياء والنفاق . إني لأظهر لك غير ما أضمر ،
وأبدي لك غير ما أخفى . فليغفر الله لى هذه الزلة ، وليتجاوز
لى عن هذه السيئة .

ما أكثر ما ينكر الإنسان أمر عشيره ! يرى منه ما يرضيه
ويخدعه ، ولو قد تكشّف له ما وراء ذلك لرأى شراً ونكراً .
برئت إلى الله من الذين لا يعبدونه وحده ناصحين مخلصين
لا يشوب دينهم رياء ولا نفاق .

أرائيكَ فليغفرُ لي الله زلّتي بذلكَ ودينُ العالمين رثاء
وقد يخلف الإنسانُ ظنَ عشيره وإن راقَ منه منظر ورّاء
إذا قومنا لم يعبدوا الله وحدهُ بنصح فإننا منهمُ برّاء

٤

سألت رجالا من أهل العلم وأصحاب الفلسفة والبصر بحقائق
الأشياء عن معدٍّ ورهطه ماذا أعدّوا لالتقاء الخطوب ، وماذا
دبّروا لتجنب الأحداث ؟ وسألتهم عن سبأ ماذا كان يسبّي إذا
حارب ، وماذا كان يسبب إذا فرغ للهواه ، وإلام صار أمره
بعد هذا كله ؟ فقالوا : إنما هي الأيام قد أنزل الناس على
حكمها ، لم يعف من صرفها مليكٌ يُفدّى بالأنفس والأموال
ولا تقي يدين الناس له بالكرامة أو بالنبوة .

إني لأرى فلكاً يدور بما فيه ومن فيه ، وإن لهذا الفلك

لسراً مصوناً ، وخبراً مكتوماً .

فأعْرِضْ عن الدنيا ، ولا تغررك عن نفسك ، لا في شبيهة
ولا في شيخوخة . إنما هي نصيحة أسديها إليك مخلصاً ،
لأنى أوثرك بالحب ، وأنا أربأ بالذين أحبهم عن طاب الدنيا
والتورط في آثامها .

لا تطلب الدنيا ، واصبر نفسك على أحداثها وكوارثها ،
وأقم فيها إقامة المجاهد المرابط ، فإن ما يُسلم بأهلها من النوائب
ليست إلا كتائب يمشيها القضاء ، مفرقة حيناً ومجموعة حيناً آخر ،
ولا مَرَدٍّ لها على كل حال .

سألت رجلاً عن معد ورهطه
فقالوا هي الأيام لم يخل صرفها
أرى فلكم ما زال بالخلق دائراً
فلا تطلب الدنيا وإن كنت ناشئاً
وما نوب الأيام إلا كتائبٌ
وعن سبيل ما كان يسبي ويسبأ
مليكاً يُفدى أو تقيماً ينبأ
له خبرٌ عنا يُصان ويخبأ
فإنى عنها بالأخلاء أربأ
تُبثُّ سرايا أو جيوش تُعبأ

بنى زمنى لا تجيدوا علىّ ، ولا تنقموا منى أن أنكر
 حالكم ، وأذمّ فعالكم ؛ فإنى أنكر من نفسى مثل ما أنكر منكم
 وأعيب من فعلى مثل ما أعيب من فعلكم ، وأشاركم فى
 الحياة ، فأشاركم فى الإثم ، وفى اللوم .
 ما أقدر الله على أن يردنا إلى هذا التراب ، فنسكن
 بعد حركة ، ونهدأ بعد عناء !

لقد جاورت نفسى هذا الجسم النكد ، فما أصابها من
 جواره إلا الأذى والصدأ الذى يفسد معدنها ، ويجلب لها
 كدرًا بعد صفاء .

بنى الدهر مهلا إن ذمت فعالكم
 متى يتقضى الوقت والله قادر
 تجاور هذا الجسم والروح برهة

فإنى بنفسى لا محالة أبدأ
 فنسكن فى هذا التراب ونهدأ
 فما برحت تأذى بذاك وتصدأ

ما أكثر ما يستقبل الناس الصبح ، وما أكثر ما يستقبلون
 المساء ! ولكنهم جميعاً ينسون ما يكون بينهما من الأحداث .
 ما أكثر من يمضى من الساسة والقادة وقد سرّوا الناس
 بسياستهم وقيادتهم ، أو ساءوهم بما دبّروا وقدرّوا !
 إن الملوك والرؤساء ليتتابعون فيما يردّون من الهلاك ، ولكن
 بلادهم تبقى على عهدّها لا تتغير ولا تتبدل ؛ فمصر هي مصر ،
 والأحساء هي الأحساء ، وما أكثر من هلك من ملوك مصر
 وأمراء الأحساء !

أى أمّنا الدنيا ، إنك لحسيسة حقيرة ، فأفّ لنا نحن
 أبناءك من أوباش أحساء ، ورثنا عنك الحسنة وضعة القدر .
 إنك لتعطيننا أصناف العظاات ، وتقدمين لنا ألوان النصيح ،
 بما تتكشفين لنا عنه من السوء والشر ، والناس مع ذلك يرونك
 خرساء لا تنطقين !

منّ لصخر بن عمرو أن يكون جسمه صخراً لا حياة فيه !
 ومن لأخته الحنساء ، أن تكون ظبية ترعى مع الأطباء ، لاحظّ

لها من عقل ! إذآ لتجنّبنا ما أصابهما من القتل ، والشكل والحزن .
 إن بحرك لهاثج شديد الهياج ، مضطرب عظيم الاضطراب ،
 تعصف به الشهوات الجاحمة ، والأهواء العنيفة ؛ ونحن في
 سفن يكتنفها الهول من كل وجه . فتى يتاح لها الإرساء ومتى
 تتاح لأهلها العافية !

إنك لتعطفين علينا وترفقين بنا . وما أرى عطفك إلا قسوة ،
 وما أرى رفقك إلا عنفاً . وإنك لتنظرين إلينا ، فترى في نظرك
 إلينا رحمة وليناً ، وإنه مع ذلك للنظر الشّزر ، لا يَصوّر
 إلا الغلظة والجفاء !

إنما الناس على الأرض في إحسن مستمرة ومحن متصلة ،
 يذوق بعضهم بأس بعض ، يتساقون الموت كما يتعاطون الشر ،
 على حين لا يصيب الوحش على الأرض من الشر إلا أيسره
 وأهونه .

فلا تنخدع بما ترى من جبالهم السماء ، وعزتهم القعساء ،
 ومجدهم التليد والطريف ؛ فإنما هذا كله باطل وغرور .
 إنما أتيح لهم حظ قليل من لذة ، ونصيب ضئيل من
 نعمة ، ثم ارتحلوا فإذا اللذة أُلْمٌ ، وإذا النعماء بأساء .
 يأتي على الخلق إصباح وإمساء وكلنا لصروف الدهر نساء

وكم مضى هجرىُّ أو مشاكله
تتوى الملوكُ ومصرٌ في غيرهم
خسست يا أمنا الدنيا فاف لنا
وقد نطقت بأصناف العظاات لنا
ومن لصخر بن عمرو أن جثته
يموج بحرُك والأهواء غالبة
إذا تعطفت يوماً كنت قاسية
إنس على الأرض تدمى هامها إحن
فلا تغرنك شُم من جباهم
نالوا قليلا من اللذات وارتحلوا

من المقاول سرُّوا الناس أم ساءوا
مصر على العهد والأحساء أحساء
بنو الحسياسة أوباش أخسَاء
وأنت فيما يظن القوم خرساء
صخرٌ وخنساء في السرب خنساء
لراكبيه فهل للسفن إرساء
وإن نظرت بعين فهمي شوساء
منها إذا دَمِيتَ للوحش أنساء
وعزةٌ في زمان الملك قعساء
برغمهم فإذا النعماء بأساء

٧

إنما العليل المعنَى طبيبٌ إذا عرف علته ، واستقصى حقيقة
الداء الذى يعاينه . فاعرف علتك فى هذه الحياة ، واستقص
حقيقة ما يصيبك فيها من أذى ، وما يلم بك فيها من مكروه .
إن أصل هذا كله حاجتك التى تنقضى ، وتتبعك لتحقيق
ما تثير الحياة فى نفسك من رغبات . والرجل اللبيب هو الذى

يشفى نفسه من الحاجة ، ويكفّسها عن تتبع المآرب .

يا ويحنا ! إنا لنفر من الموت ، وليس لنا ملجأ من الموت ،
ونحن مع ذلك نمضى فى الفرار ، وهو مع ذلك يلحّ فى اقتفاء
آثارنا ، كأنما نحن الأحياء قد شطت بهم نوى بعيدة ، والموت
عاشق ملح بأبى إلا أن تتصل أسبابه بأسبابنا .

إن الأعيلاء إن كانوا ذوى رَشَد	بما يُعانون من داء أطباء
وما شفاك من الأشياء تطلبها	إلا الألباء لو تُلغى الألباء
نفر من شرب كأس وهى تتبعنا	كأننا لمناياه أحياء

٨

إذا تمايز الناس فى أخلاقهم وخصالهم ، وافترقوا فى أقوالهم
وأعمالهم ، فهم سواء فى فساد الطبع وسوء الغريزة .

وإذا كان كل الذين ولدتهم حواء يشبهونى فى الطبع
والخلق والسيرة ، فبئس من ولدت حواء للناس .

إنما أوتر العزلة وأتجنب الناس ، لأبرأ من أدوائهم ، وأعتصم
من شرورهم ، وأطهر من آثامهم . إنما أريد أن أكون كبيت
الشعر يقول الشاعر مفرداً لا سابق له ولا لاحق ، فهو بذلك

آمنٌ عيوب القافية . إنما يأتينا السوء من الحياة الاجتماعية التي
 بجاور فيها بعضنا بعضاً ، فيشتقي فيها بعضنا بجوار بعض .
 لقد ناداني المنادي ألويتَ فانزل . فلافهم عن المنادي
 نداءه ، فهو لا يريد أني قد بلغت اللّوى ، وإنما يريد أن نبتى
 قد ألوى ، وأن زهرى قد ذوى ، وأننى قد أدركت الشيب ، فأن
 لى أن أرعوى وأثوب إلى الرشيد .

إنما الشيب كهذه النجوم التي لا تكاد تظهر في الدُّجى
 حتى يتبعها المطر الواكفُ ، كذلك الشيب لا تكاد تظهر
 نجومه في سواد الشعر حتى تنهل العبرات حزناً وخوفاً وإشفاقاً .

إنما زلت الناس أخلاق يعاش بها
 أو كان كل بني حواء يشبهني
 بعدى من الناس برء من سقامهم
 كالبيت أفرد لا إبطاء يدركه
 نوديت ألويتَ فانزل لا يراد أتى
 وذاك أن سواد الفؤد غيره
 إذا نجوم قدير في الدُّجى طلعت

فإنهم عند سوء الطبع أسواء
 فبئس ما ولدت في الخلق حواء
 وقر بئسهم للحيجا والدين أدواء
 ولا سيناد ولا في اللفظ إقواء
 سيرى لوى الرمل بل للنبت إلواء
 في غرة من بياض الشيب أضواء
 فلاجفون من الإشفاق أنواء

أسرع إلى ما يخلق بك من نفع الناس معرضاً عما لا خير فيه ، وبادر بذلك أحسن الأوقات ، وأشدّها ملائمة له ، وهو وقت الشباب ؛ فإن الشباب أوفق وقت للاستيفاء الحاجات واقتضاء اللذات ، وهو لا يدوم بل الدهر ماحيه ومُسخي جذوته وما الشباب إلا كالنار ، يجدر بمن يريد الانتفاع بها أن ينتهز فرصة ذكائها وتلظىيها .

ولقد أصاب قوة شبابي وهنُ الشيب ، فلم أستطع أن أردّ ذلك الضعف قوة ، ولا أن أحول هذا الحمود استعماراً . ولئن كان الشباب كالنار إن من اليسير عليك إذكاء النار الحامدة بعد خمودها ، وليس من الممكن ولا من المتاح أن تسترد شباباً مضى ، أو تستأنف قوة فاتت .

ولست آمن عليك حين تخبو نار شبابك فتريد إذكاءها ، أن يعود عليك ما تحاول من نفعها ضرراً ، وما تطلب من خيرها شراً ؛ فكل قوة يبذلها الأشب استئناً لحياة الشباب لا تزيده إلا ضعفاً ولا تفيده إلا وهناً .

أَكْنَفِي سُوَامِكَ فِي الدُّنْيَا مِيسِرَةً
 وَأَعْرِضْ عَنْ قَوَانِي الشَّعْرِ تَكْفِئَهَا
 إِنْ الشَّبِيبَةُ نَارٌ إِنْ أَرَدْتَ بِهَا
 أَمْرًا فَبَادِرْهُ إِنْ الدَّهْرُ مُطْفِئُهَا
 أَصَابَ جَمْرِي قُرْفًا نَتَبَهْتُ لَهُ
 وَالنَّارُ تُدْفِئُ ضَيْفِي حِينَ أَدْفِئُهَا
 أَلْقَى عَلَيْهَا جَلِيسِي فِي الدَّجَى حُمَامًا
 فَقَامَ عَنْهَا بِأَثْوَابٍ يَرْفُسُهَا

١٠

أَجَل ! قَدْ عَمِيتِ الْأَبْصَارُ ، وَخُتِمَ عَلَى الْقُلُوبِ ، وَأَظْلَمَتِ
 الْبَصَائِرُ حِينَ حُجِبَ عَنْهَا نُورُ الْحَقِّ ، فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُمْ عَلَى
 دِينٍ صَادِقٍ ، وَإِنَّمَا هُمْ عَلَى نِفَاقٍ وَرِيَاءٍ ، لَيْسَ إِلَى إِصْلَاحِهِمْ
 مِنْ سَبِيلٍ ؛ فَقَدْ فَقَدُوا أَهَمَّ شَرْطٍ لِلْإِصْلَاحِ وَهُوَ الْحَيَاءُ . وَكَيْفَ
 يُمْكِنُ أَنْ يَمِيلَ إِلَى الْخَيْرِ مَنْ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الشَّرِّ !
 أَيُّ هَذَا الْعَالَمُ السَّيِّئُ وَالْمَنْزِلُ الْمَوْبُوءُ ! لَقَدْ رَأَيْنَا فِيكَ الْمَصْلِينَ ،
 وَلَكِنَّا لَمْ نَرِ فِيكَ الْإِتْقِيَاءَ .

أَلَا لَا يَكْذِبُ الْجَاهِلُونَ ؛ فَقَدْ خَلَعَ النَّاسُ وَلَايَةَ اللَّهِ مِنْ
 أَعْنَاقِهِمْ ، فَلَيْسَ فِيهِمْ لَهُ وَلِيٌّ وَلَا صَادِقٌ أَمِينٌ .
 أَيُّهَا الْبِلَادُ الَّتِي اشْتَمَلَتِ السَّعَادَةُ وَالشَّقَاءُ ، وَاحْتَوَتْ الْفَقْرَ
 وَالثَّرَاءَ ! لَقَدْ حَقَّتْ عَلَيْكَ الْكَلِمَةُ ، وَمَضَى فِيكَ الْقَضَاءُ الْمَحْتُومُ

بالخزي والتعس ؛ فأهلك أشقياء ليس لهم من شقائهم منفذ ولا لهم عنه صارف ، لا ينفعهم وعظ ، ولا يحكمهم إرشاد . لقد طالما عنينا أنفسنا بالنصح والهداية ، فوعظ الواعظون وقام الأنبياء ، ولما يُجسد ذلك نفعاً ، ولما يأت بخير . البلاء باق لا زوال له ، والداء عيَاء لا شفاء له ، وحكم الله فينا نافذ لا صارف عنه ، ولكننا بفطرتنا أغبياء لا نفهم ، وحمقى لا نعقل :

قد حجب النور والضياء	وإنما ديننا رياء
وهل يجود الحيا أناساً	منطويّاً عنهم الحياء
يا عالم السوء ما علمنا	أن مصائبك أتقياء
لا يكذبن امرؤ جهول	ما فيك لله أولياء
ويا بلاداً مشى عليها	أولو افتقار وأغنياء
إذا قضى الله بالخازي	فكل أهليك أشقياء
كم وعظ الواعظون منا	وقام في الأرض أنبياء
فانصرفوا والبلاء باق	ولم يزل داؤك العيَاء
حكم جرى للمليك فينا	ونحن في الأصل أغبياء

تعالى الله الذى شمل الناس بنعمته ، وعمهم برزقه ، لم
يفرق بين فاضل وعاطل ، ولا بين ناقص وكامل .
لقد وهت المروعة وأخاقت أديمها ، ومضى الحياء وعفت
آثاره ، حتى بغضت الحياة إلى البصير ذى اللب ، وكره العيش
إلى الحصيف ذى العقل ، وأصبح الموت له راحةً والعدم له نعماً .
أجل ! لقد أصبح الموت خيراً من حياة ملؤها الشر ، وأحب إلى
النفس من عيش مفعم بالذل والاستبداد ؛ فقام على الناس ،
ومنهم الألباء الأذكياء ، ظالمة معتدون ، يحملونهم على ما
يكروهون ، ويسوسونهم بما لا يحبون ، وهم بعد ذلك أولى أن
يحملوا نفوسهم على الخير ، وأجدر أن يأخذوها بالمعروف .
أجل ! لقد فتشت فى هذه الدنيا عن أهل الدين الصادق ،
والاعتقاد الصحيح ، الذين لا يشوب صفاء دينهم كدر الرياء ،
ولا صبدأ النفاق ولا دنس الخديعة ، فإذا الناس فى الدين رجالان
أما أولهما فأبله لا يعقل أو محمق لا يفقه ، هو البهيمة لا يهديها
إلى الحق عقل ، ولا يرشدها إلى الخير ضمير . وأما الثانى فذكى

فطن ، ولكنه مختال مرح . فأنت من أهل الدين بين ما كر خادع ، وجاهل غنى .

ولعمري لو أن الدين والتقى كانا عِيًّا وبلهًا أو غفلة وحمقًا لقد كانت الأعيار التي ضُرِبَتْ عليها الذلة ، والحمُر التي أُخِذَتْ بالنزق والمسكنة ، أحق بالدين وأدنى إليه ، ولكن ذلك الأجرب الذي أكله العبء الثقيل ، وهبت عليه الريح الباردة ، فزادته تأذيًا بدائه وتألمًا بعلمته ، أهدى إلى الدين سبيلًا ، وأكثر فيه رشدًا !

أجل ! لقد عظم الشر في هذه الحياة ، واشتد حرص الناس عليها ؛ فليس فيهم إلا محب لها ومشغوف بها ، حتى جعلهم الحرص كلهم فقراء ، لا يعرفون الغنى ، ولا يذوقون النعمة ، وحتى كان ما فيها من شقاء يغريهم بها ، وما في الموت من راحة يصرفهم عنه .

ولقد عظم في نفوسهم أثر الحرص على الحياة ، حتى ما تجد لأحد من أصحابه صفيًّا ولا صديقًا . وكذلك باعدت الحياة بين الناس قديمًا ؛ فهم أعداء منذ كانوا وقد خُلِقوا ليكونوا أصدقاء . إيه أيها المحمقون ! لقد أخطأكم ، العبرة وأضلتكم الموعظة ، فغفلتم عما كان يخلق بكم أن تحفلوا به وتتنبهوا إليه ! علام

تأسفون إن دهمكم الموت وفارقتكم الحياة ؟ أفتعقدون أن الشمس
وهي أذكى منكم ناراً وأجمل بهاء تحس ما لها من نباهة الشأن
وحسن الطلعة ، فتأسف إن فارقتها جمالها ، وتأسى إن باعدها
ضياؤها ! أما إن في العالم لعبراً نافعة ، ومواعظ صالحة ، ولكن
الناس أكثرهم لا يعقلون .

تعالى رازقُ الأحياء طرّاً
وإن الموت راحةٌ هبـرزى
ومالى لا أكونُ وصىَّ نفسى
وقد فتشتُ عن أصحاب دين
فألفيتُ البهائم لا عقولُ
وإخوان الفـطانة فى اختيال
فأما هؤلاء فأهلُ مكر
فإن كان التقي بلهماً وعيماً
وأرشدُ منك أجربُ تحت عبء
وجدتُ الناس كلهم فقيرُ
نحب العيش بغضاً للمنايا
يموت المرء ليس له صنى
أتدرى الشمس أن لها بهاءً

لقد وهت المروعةُ والحياءُ
أضرَّ بلبِّه داءُ عيَّاءُ
ولا تعصى أمورى الأوصياء
لهم نُسُكٌ وليس لهم رياء
تقيم لها الدليلَ ولا ضياء
كأنهم لقوم أنبياء
وأما الأولون فأغبياء
فأعيارُ المذلة أتقياء
تهب عليه ريحُ جربِباء
ويُعدمُ فى الأنام الأغنياء
ونحن بما هـوينا الأشقياء
وقبل اليوم عزَّ الأصفياء
فتأسف أن يفارقها الإياء

جيدٌ وأَيُّهَا الناس فيما أنتم بسبيله من تقرب إلىّ وتلطّف بي ،
ومن رفق تـظـهـر ونه وغش تضمر ونه ، ومن لفظ حلو تهد ونه إلىّ
ولوم مرّ ترموزني به ؛ فلقد كثر ما أظهرتم الحب لي ، وأصابني
من بغضكم طـيـوالُ السهام وقصارها ، وعظام الأمور وصغارها .
جيدٌ وافي ذلك كله ؛ فلم يكن تقربكم إلىّ ليؤلف بيني
وبينكم إلا إن صح ائتلاف الذال والظاء :

أراهم يضحكون إلىّ غـيـشاً	وتغشاني المشاقصُ والحظاءُ
فلستُ لهم وإن قـرُبوا أليفاً	كما لم تأتلف ذالٌ وظاءُ

ويلي على تلك الذوائب السود قد أغار عليها ذلك الشيب
نهاريّ الثوب ، يمحوظا ممتها بضميائه قليلا قليلا حتى يأتي عليها .
أفينبغي أن آسى على الشباب ؟! أم ينبغي أن أفرح بالشيب ؟
أفلا أستطيع أن أتلقّى الشيب فرحاً مسروراً ، معالاً نفسي

بما عسى أن يكون حقاً من الأمانى ! فلعل هذا السواد الزائل قد كان دنساً أصاب تلك الذوائب ، ثم عُنِيَ الشيب بإزالته وحرّص على محوه وإحالة إلى بقاء .

إيه أيتها الدنيا ! لقد عشقناك راغبين ، ثم أشقينا كارهين وكذلك العشق شقاء ، والحب تعس ، والهوى هوان .

إيه أيتها الدنيا ! لقد سألناك البقاء ، وطلبنا إليك الخلود ، على ما فيك من أذى ، وعلى ما تشتملين من ألم ، فأبيت ذلك علينا ، وصرفته عنا ؛ إذ كان الفناء لنا مقدوراً ، والبقاء علينا محظوراً .

إيه أيها الراغب في الدنيا الحريص عليها الذى كذّب فيها ظنون الحكماء ، واتهم فى حبها رأى الفلاسفة ؛ لقد خدعتك نفسك وأضلّمتك آمالك ! فإنما أنت وأصحابك إلى بعاد لا دنوّ بعده ، وفراق لا لقاء معه . إنما أنت وأصحابك عرضة لموت واقع غير مدفوع ، وحمام نازل غير مردود .

دونك ما شئت من دروع ضافية وحصون واقية ، ومن معاقل وبروج ، ومن أسلحة وقوة ؛ فإن ذلك إن استطاع أن يدفع عنك شيئاً من أذى عدو ، فلن يستطيع أن يردّ عنك ما تحمله إليك الأيام من ردّى لا بد منه ولا مندوحة عنه .

لا أحدرك بغير علم ، ولا أنهاك عن غير بصيرة ، وإنما
أصدر في نصيحتي لك عن تجربة صادقة وبحث صحيح .
الموت واقع لا شك فيه ، قدرهنته الطبيعة لوقت معين ، وجعلت
له كتاباً ثابتاً وأجلاً محتوماً .

قد زالت الشمس والماء بين يديك ، وأنت رجل تنتحل
الإسلام ، فدونك الظاهر ، فأد فريضته وأقم صلاته . وقد انحل
جسمك ومضى أجلك ، وأدبرت عنك الحياة وأنت إنسان ليس
من طبيعتك الخلود ، فدونك الموت فرد حوضه ، واحتس كأسه
أقدم أو أحجم فإنك ميت من غير ريب . لم تكره الموت ، ولم
تعاف كأسه وأنت لم تذقها ولم تسبل منها حلاوة ولا مرارة ! هل
وجدت الحياة عذبة المذاق لذيدة الجنى ؟ كلا ! ما أراها إلا
كأساً نحتسيها غافلين عن مرارتها وما فيها من غضاضة ، فإذا
أقبل الموت وقتنا ما استقر في أمعائنا من هذه الكأس عرفنا مرارة
العلقم والصاب ، وتبيننا أننا لم نكن إلا مخدوعين .

ألا إنك مخدوع فأفق من غفلتك ، ودع ما تجشملك
الحياة من المكر وه ، وما تصيبك به من الأذى ، وما تحملك
عليه من إيثار البغضة على المحبة ، فكل ذلك باطل لا خير فيه .
دونك الحب والمودة والإخلاص في الإخاء ، فاغتم نصيبك منها

قبل أن يدركك الموت فتمضى وقد خسرت الحق والباطل جميعاً .
 أَسَيْتُ عَلَى الذَوَائِبِ أَنْ عَلاهَا
 لَعَلَّ سَوَادَهَا دَنَسٌ عَلَيْهَا
 وَدُنْيَانَا الَّتِي عُشِقَتْ وَأُشِقَتْ
 سَأَلْنَاهَا الْبَقَاءَ عَلَى أَذَاهَا
 بَعَادٌ وَقَعَ فَتَى التَّدَانِي
 وَدِرْعَاكَ إِنْ وَقَّتْكَ سَهَامُ قَوْمٍ
 وَأَسْتُ كَمَنْ يَقُولُ بِغَيْرِ عِلْمٍ
 فَقَدْ وَجِبَتْ عَلَيْكَ صَلَاةُ ظَهْرِ
 لَقَدْ أَفْنَتْ عَزَائِمَكَ الدِّيَا جِي
 فَيَا سِرْنِي لَتَدْرِكَنِيَا الْمَنَايَا
 أَرَى جُرْعَ الْحَيَاةِ أَمْرَ شَيْءٍ

نهاريُ القميصُ له ارتقاء
 وإنقاءُ المُسِينِ له نَقَاءُ
 كَذَاكَ الْعَشَقُ مَعْرُوفًا شَقَاءُ
 فَقَالَتْ عَنْكُمْ حُظْرَ الْبَقَاءِ
 وَبَيْنَ شَاسِعٍ فَتَى الْإِقَاءِ
 فَمَا هِيَ مِنْ رَدَى يَوْمٍ وَقَاءِ
 سَوَاءٍ مِنْكَ فَتَاكَ وَاتِقَاءِ
 إِذَا وَافَاكَ بِالْمَاءِ السَّقَاءِ
 وَأَفْرَادُ الْكَوَاكِبِ أَرْفِقَاءِ
 وَنَحْنُ عَلَى السَّجِيَّةِ أَصْدِقَاءِ
 فَشَاهِدُ صِدْقِ ذَلِكَ إِذْ تَقَاءِ

أَفْ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ وَأَفْ لِهَذَا الْعَالَمِ ! لَقَدْ احْتَبَسَانِي فِيهِمَا أُسِيرًا
 وَارْتَهَنَانِي عِنْدَهُمَا بِحَيْثُ لَا أُؤْمَلُ مِنْ أُسْرِهِمَا فَكَاكَا وَلَا أَرْجُو
 مِنْ سَجْنِهِمَا انْطِلَاقًا . فَكَأَنِّي وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى حَالِ سَيِّئَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ

ليس لى عنها مرحلٌ ولا مندوحة ، قافُ رُؤبة أرسلها ساكنة
 ليس لها إلى الحركة سبيل ، ونطق بها مقيدةً ليس لها من
 الإطلاق حظٌ .

أف هذه الحياة ، وأف لهذا العالم ! لقد أنهلانى الهموم ،
 وعلانى الخطوب ، وأصابانى من أحداثهما بعال ليس لها شفاء ،
 وأدواء ليس لها دواء ، فكأنما أصابتنى منهما تلك العلة الباقية
 القديمة التى تصيب الأفعال الجوف وتردّ وآوها وياءها ألفاً
 يعنى الأطباء شفاؤها ، ويعجز الحكماء الطبّ لها .

إيه أيها الجسم الذى فترت أوصاله ، وانحلت قواه ، وطال عليه
 الأمد ! لقد أنى لك أن تستبد بك الصحراء ويتضمنك التراب .
 أجل ! لقد فترت أوصالك ، وارتخت مفصلاتك . وما ذاك
 من شرب المدام ولا حب الندام ، وإنما هى الخطوب المسرية
 والهموم المدلجة ، ألحت عليك فبدلتك من القوة ضعفاً ، ومن
 النشاط فتوراً .

لقد طال بى المقام حتى مللته ، وطالت علىّ الحياة حتى
 سئمتها . فكم أنا مُعَنَّى بعشرة أمة قد حكمتها الذلة ، وسيطر عليها
 الظلم ، واستبد بحقوقها الأمراء ، يظلمونها أشد الظلم ، ويعسفونها
 أقبح العسف ، ويكيدون لها شرّ الكيد ، ويعدون مصالحها ،

ويتجاوزون منافعها ، وإنما هم لها أجراء ، وعنهما وكلاء .

أمة قد طالت صحبتي لها واختباري إياها ، فما دلتني التجربة
ولا أرشدني الاختبار إلا إلى براءتها من الخير وإقفارها من
المعروف ، وإلا إلى أن أشدها بالشر اتصالاً وأكثرها فيه إغراقاً
هم الشعراء الذين قد كانت تُعقد بهم آمال الإصلاح ، ويُناط
بهم رجاء الخير .

أمة ما أكثر قَوْلها وأقل عملها ! ما أكثر روايتها لأخبار
الجلود وأحاديث الأجواد ! وما أشد بخليتها بالمال وضنها بالثراء !
كأن ما ترويه من حمد الكرم ، وما تتأثره من مدح الجود ،
يغريها بالبخل والكزازة ، ويرغبها في الضن والبدناءة .

أمة جنت من ثمار الحياة ما لم تكن له أهلاً ، ولقيت من
نعيمها ما لم تكن به خليقة ، فأبطرتها النعمة ، وأفسدها الغنى .
ولم أر شراً من نفس الإنسان ، إذا تجاوزت قدرها جناح بعوضة ،
ساعت حالها ، وفسدت طبيعتها ، كأنها القصيدة من الشعر
يزينها الوزن الصحيح المستقيم ، فإذا زيد فيها حرف ظهر
للسامع نكرها ، وبان للسمع اختلالها .

أمة أطغتها الثروة ، وأطمعتها الحياة ، فتزيتت منهما ،
وتلذذت بهما ، كأنها النائم يلد له النوم فيستزیده ، غافلاً عن

أن زيادته إنما هي تقصير من أجله ، واستعجال لموته .

سبحانك اللهم ! لقد جلّ شأنك ، وخفيت حكمتك على العقول . بسطت الغبراء ، ورفعت فوقها الخضراء ، وأجريت بينهما عالمًا ما أعرف للخير فيه موضعًا . عالمٌ عاقل ولكنه شريرو . هل تعرف رذائله الحيوانات العُجُم ؟ وهل تُشاركه فيها المخلوقات البُله ؟ هل تحسد الجياد السود القائمة أخواتها الغُرّ الواضحة ؟ كلا ! ما أرى للحسد فيها أثرًا ، وإنما هو طبيعة الإنسان قد أفسده الطمع والشره ، وغيّره البخل والحرص .

أف لك أيتها الدنيا المتقلبة ! ما أرى أنك تشبين على حال . وما أشبهك إلا بالحسنة الناعمة ، ذات الدلال والغنج ، وذات الجمال والبهجة ، وذات المنظر الساحر واللفظ الخادع والاحظات المطمعة ، ثم هي مع هذا كله طامث ، قد لزمها الطمث ، وحجبها الخيض ، فما تستقيم أقرأؤها لطالبها ، وما تنتظم أطهارها لمحبتها ، على أنه بها كلفٌ مُعْنَى ، وعليها حريصٌ معذب .

لقد هويك الناس فذكّيت أهواءهم بالمنى ، ونميتها بالآمال حتى إذا جاءت وقت الإثابة واقتضاء اللذات ، أوقعتهم في اليأس المهلك والقنوط المميت . لقد شقى بك الأغنياء الذين هم أشد عليك حرصًا وأكثر فيك رغبة ، واستراح منك الفقراء الذين

هم أبعد منك مكانًا ، وأقل بك اتصالاً !

لقد أفسدت عقولاً كانت خليقة أن تصلح ، وعوجت طرقاً كانت جديرة أن تستقيم . أولئك الفقهاء لا يتجادلون إلا فيك ، وأولئك القراء لا يتقرءون إلا لك ؛ فأما فقه الدين واستظهار الكتاب ، فشئ لا يحفلون به ولا يلتفتون إليه !

لقد أضللت المعتول وأفسدت الطبائع حتى لم يبق للنصح إليها طريق وكأنما النصح بالانصراف عنك إغراء بشدة الحرص عليك .

مالى غدوت كفاف رؤبة قيدت
أعلت علة قال وهى قديمة
طال الشواء وقد أذنى لمفاصلى
فترت ولم تفتر لشرب مدامة
مل المقام فكم أعاشر أمة
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
ففرقاً شعرت بأنها لا تقننى
أثرت أحاديث الكرام بزعمها
وإذا النفوس تجاوزت أقدارها
كصحيحة الأوزان زادت بها القوى
كريت فسرت بالكري وحياتها

فى الدهر لم يقدر لها إجراؤها
أعياء الأطباء كلهم إبراءها
أن تستبد بضمتها صحراؤها
بل للخطوب يغولها إسراؤها
أمرت بغير صلاحها أمراؤها
فعدوا مصالحها وهم أجراؤها
خيراً وأن شرارها شعراؤها
وأجاد حبس أكفها إثراءها
حد البعوض تغيرت سجرائها
حرفاً فبان لسامع نكراؤها
أكرت فجر نوائبها إكراؤها

سبحان خالقك الذي قرّرت به
 هل تعرف الحسد الجياد كغيرها
 ووجدت دنيانا تُشابه طامثًا
 همويّة ولم تُسعف وراح غنيها
 وتجادلت فقهاؤها من حبها
 وإذا زجرت النفس عن شغف بها
 غبراء توقد فوقها خضراؤها
 فالبُهم تُحسدُ بينها غراؤها
 لا تستقيم لنا كح أقرأؤها
 تعبًا وفاز براحة فقراؤها
 وتقرّأت لتناولها قراؤها
 فكأن زجر غويها إغراؤها

١٥

أيابنة الماء ، وذات النُوب والأنباء ! أنت التي لا تثبت
 على حال ولا يستقر لها أمر . أنت المضطربة الهائجة ، والمرتبكة
 المائجة . أنت الغرارة الخدّاعة ، والمنّاحة المنّاعة .
 أف لك ! لقد قلّ فيك الخير ، وكثر فيك الشر . ولقد
 صغُرَت أمورك ، وهانت الآمال فيك ؛ فأعظم حظ الفائز بك
 والظافر برغائبك ، طعامٌ يُسيغه ، ورفثٌ يناله .
 تسيرين على غير حكمة مفهومة ولا نظام مألوف ، يسعد
 فيك المقيم الآمن ، ويشقى بك المجدّ الظاعن .
 قضاء سبقت به الكلمة وجرى به القلم ، فما يزال على الناس

جاريًا ، وعلى العقول خافياً ، قد حير الألباء فهمه ، وأعيا
الحكماء تعبيره .

أسلاف تسلف ، وأخلاف تخلف ، وملوك يزول عنها العز
ويفارقها السلطان ويسلمها الأحباء والأحباء ، وآثام ما تزال
تجددها الحاجة ، وسيئات ما يزال يخلقها الفقر والبؤس . ونحن
لكل هذه السهام أغراض ، لانحس ولا نشعر ولا تسمو عقولنا
إلى عظة ولا اعتبار .

دنياك ماوية ^{٢٨} لها نوب ^{٢٩}	شتى سماوية ^{٣٠} وأنباء
أف ^{٣١} لها جل ^{٣٢} ما يفيد بها	من ^{٣٣} فاز فيها الطعام ^{٣٤} والباء
جسد ^{٣٥} مقيم ^{٣٦} وخاب ذو سفر	كأنه في الهجير حرباء
أقضية لا تزال واردة ^{٣٧}	تَحَارُ في كونها الألباء
قام بنو القوم في أماكنهم	وغابت في التراب آباء
وزال عز الأمير وافترقت	أحبائه عنه والأحباء
وكل حين حوب ^{٣٨} ومعصية ^{٣٩}	زادتهما في الذنوب حو ^{٤٠} باء

إيه أيها المتفكر المتفهم والباحث المستبصر ! لقد قضى عليك
أن تعيش في عصر ظهر فيه الجهل ، وخفى فيه العلم ، وعم

دهماءه الحمق ، واشتمل على أهله الجمود .

سبحانك اللهم ! بك آمنت ، ولك أذعنت . لك العبيد
والإماء ، من رجال ونساء ، لك الأرض والسماء ، والهواء والماء .
لك النجوم الطالعة ، والكواكب الساطعة .

قل ما شئت من ذلك لا يعبك بقوله حكيم ، ولا ينكره
عليك فيلسوف . ثم دعني أستغفر الله وأتضرع إليه ؛ فقد
انقضت عني مدتي وأسلمتني أيامي إلى الحين .

دعني أفرغ لما أنا فيه من خلوة إلى نفسي وعناية بأمرى .
فإنما نحن في أيام كثرت فيها الأسماء ، وقل فيها الغناء .
يزكرون الكرم والجود ، والحق والفضيلة ، والخير والبر ، وإنما
هي ألفاظ تلفظها الأفواه وتلتقفها الرياح . يروون الحكمة والعظة
ويأثرون النصيحة والهدى ، ويدرسون العلم والشرعة ، وإنما
هي أكاذيب الرواة ، وأحاديث الغواة ، وأفانين من التجارة
اخترعها القدماء ، يكسبون بها عيشهم ، ويشترون بها ثمنًا
قليلا . دعني أفرغ لما أنا فيه ؛ فقد كدّ بطني الأمانى ،
وتكشفت لي الآمال عن باطلها ، وظهرت لعيني الحقائق واضحة
ولكنها بشعة المنظر مرة المذاق .

هل ترى هذه الشهب اللامعة إلا شبا كًا قد أعدّها الدهر

يلقيها على العالم فيصطاد بها فرائسه ! أو ما تبصركم ترك الردى
فى الناس من الأفاعيل : كيف فرق بين الأصهار والأحماء ،
وكيف باعد بين الآباء والأبناء !

عجباً للقضاء المحتوم والقدر المكتوب ! لقد مضى على
الخلق لا يردّهما رادّ ولا يدفعهما دافع ، حتى أصبح الأمل
معهما حمقاً ، واليأس بين يديهما حزناً .

أيتها العصماء المكنونة ، والحسناء المصنونة ، لا يخذعنك
جمالك الخلاب للعقول الفتان للألباب . لا يخذعنك لحظك
الفتاتر ، ولفظك الساحر . لا يخذعنك خدك الأسيل ، ونصرك
النحيل . لا يخذعنك وجهك الذى تباهين به ضوء النهار ، وشعرك
الذى تبارين به فحمة الليل ! فكل ذلك إلى زوال . إنما بدرك
إلى أفول ، وزهرك إلى ذبول ، وجمالك الفتان إلى فناء . ارتقى
ذلك اليوم الذى سيصوب إليك من الحمام سهماً لا يطيش ،
ونصلاً لا يخطئ ، ورمية لا يحميك منها معقل ولا حصن .
خذى مكان العصماء من رأس الجبل ، فإن الموت لاحقك
لا محالة ، ونازل بك من غير ريب !

أنسى يكون الخلود أو يقدر البقاء لجسم ما أرى حياته وصحته
إلا رهناً باتفاق غرائزه ، ووقفاً على النشام طبائعه ؛ فهو صحيح

إن استوين ، وعليلٌ إن التوين .

أذعن أيها الإنسان لحكم الزمان ، لا تناقشه حساباً ، ولا تسأله ثواباً ، ولا تطلب منه لشيء علة ، ولا ترج منه لسؤال جواباً . إنما الزمان أعْمى لا يبصر ، وأصم لا يسمع ، وأحمق لا يعقل ، وأعجم لا ينطق . ألا وإن حُكمُ العجماوات أن جنائياتها مُهْدَرَةٌ ، وجرائمها مغتفرة .

ألا وإن دنياك نهار وأيل ، لا تثبت على حال ، فهي كالحية الرقطاء ، ربما تعجبك ألوانها ولكن في نابها السم الزعاف .
ألا وإن الناس بالموت مدينون ، ولا بدّ لهذا الدين من وفاء ولهذا القرض من قضاء . والموت غريم لا يسهل ردّه ولا يمكن الإلواء عليه .
ألا وإن الزمان قد قسم الحظوظ بين الناس ، فأساء القسمة لم يراع في ذلك عدلاً ولم يتبع قاعدة ، فأما بالظماً كعب بن مامة ، وروى بنمير الماء بعمه الكثيرين .

لا تلتمس لشيء علة ، ولا تطلب لموجود سبباً ؛ فذلك شيء قد عُصِيَ عليك أمره ، وحُجِبَ عنك سرّه . وانقسم العالم منذ كان إلى حيوان نام حساس ، ونبات ينمو ولا يحس ، وجماد قد حرم الحس والنمو معاً . وما أعرف لهذا الجسم الذي رزق القوتين ، وظفر بالفضيلتين ، نافلةً من فضل تثره بالحياة

والحركة ، وتختصه بالحس والنمو دون الآخرين .

ما أجهل الناس ، وما أضلّ عقولهم ، وما أغفلهم عن العواقب ، وأعماهم عن مستقبل الأمور ! لو أنهم عرفوا حياتهم حق المعرفة وبلوها حقّ البلاء ، لهانت عليهم واصغرّت في عيونهم فلم يغتّل فيها بعضهم بعضاً . ولو أنهم إذ كبروا منها صغيراً ، وعظّموا من أمرها حقيراً ، وفرضوا لأنفسهم حساباً تظهر فيه سيئاتهم وحسناتهم ، وتبدو فيه نقائصهم وفضائلهم ، ويلقى بعده كل امرئ نتيجة عمله خيراً أو شراً ، لو أنهم إذ فعلوا هذا كله خافوا الحساب الذي فرضوه ، والميعاد الذي انتظروه ، لما سفكوا بينهم من الدماء ما يجارى الماء ؛ ولكنها طبائع بلهاء ، لا تعرف للحق طريقاً ، ولا تسلك إلى الهدى سبيلاً .

سلني عن أحق الناس بالرحمة وأولاهم بالرفق والرافة ، أجبت بأنهم أولئك الذين نشئوا راحمين للضعيف عاطفين على البائسين ، ثم تنكرت لهم الأيام ، وأرهقتهم من أمرهم عسراً . هذه أخلاقنا وتلك خلالنا ، ما أحمد فيها خلقاً ولا أرضى منها خلة ، ونحن بعد ذلك بأنفسنا معجبون ، وبأخلاقنا مفتونون ، نغضب من مقالة الحق ، ونحقد على صادق زماننا بخسة الأصل ولؤم الطبع . نعم ! نحن أخسّاء لؤماء .

وأنت أيها الأب الذي سمّته التواريخ آدم فغلّبت على لونك
السواد ، وسمّيت زوجك حواء فجعلت على لونها سواداً مشوباً
بحمرة ، لقد ائتلف منكما مزاج جمع فيه الخير والشر ، ولكن الشر
عليه غالب ، والسوء فيه موفور .

كُنْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ غُلُوءِكُمْ ، وَخَفِّقُوا مِنْ غُرُورِكُمْ ؛ فَإِنَّمَا
أَنْتُمْ لِلْأَيَّامِ أَغْرَاضٌ غَيْرُ مَوْمُوقَةٍ ، وَأَهْدَافٌ غَيْرُ مَرْحُومَةٍ . وَلِعَمْرِي
لَنْ تَشْفُقَ عَلَيْكُمْ الْأَيَّامُ إِلَّا إِذَا أَشْفَقْتَ الرَّحَا عَلَى مَا تَطْحَنُ مِنْ
حَبٍّ ، وَلَنْ تَرْتِي لَكُمْ السَّنُونَ إِلَّا إِذَا رَثْتَ الْأَرْضَ لِمَا تَضُمُّ مِنَ
الْأَشْلَاءِ . وَلَكِنِّي مَا أَرَى لَكُمْ مِنَ الذِّكَا حِظًّا ، وَمَا أَعْرِفُ بَيْنَ
عُقُلَائِكُمْ وَبَيْنَ بِلَهِ الْحَيَّوَانِ فَرْقًا ، سِوَاءِ مَنْكُمْ ذُو الْعَقْلِ الرَّاجِحِ
وَالرَّأْيِ الصَّائِبِ . مَا أَجْدُ رَجَحَانَ أَحْلَامِكُمْ وَصَوَابَ آرَائِكُمْ ،
يَزِنُ خِفَةَ أَحْلَامِ الطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ ، وَالسَّمْلَكِ فِي الْمَاءِ .

أَفِيقُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَاسْتَبْصِرُوا ؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ لِلْأَيَّامِ هَزْأَةٌ وَلِلزَّمَانِ
ضُحْكَةٌ ، وَلِلْحَوَادِثِ مُسْتَدَاكُونَ . أَرَأَيْتُمْ إِلَى ذَلِكَ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ قَدْ
احْتَدَّتْ شَوْكَتُهُ ، وَاشْتَدَّتْ سَطَوَتُهُ ، وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ، كَيْفَ
أَغَارَتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ زَارِيَةً عَلَيْهِ مُحْتَقِرَةٌ لَهُ تَسْتَدْلُهُ اسْتِدْلَالُ الْأَرْنَبِ !
أَجَلْ ! إِنَّكُمْ لَتَتَفَاضِلُونَ فِي الْحَيَاةِ نِعْمَةً وَبُؤْسًا ، وَإِنْ أَقْدَارَكُمْ
لَتَخْتَلِفُ رَفْعَةً وَضِعَةً ، وَلَكِنَّكُمْ جَمِيعًا إِلَى فَنَاءٍ ، قَدْ اخْتَلَفَتْ

إليه الطرق وتشعبت إليه المسالك . فلئن كان الفقر لا يميت
الملوك وأصحاب النعمة والثراء ، لقد جعل لها الدهر من غناها
رصداً مهلكاً ، ومن ثروتها علة مميتة ؛ فهم كالزهرة النضرة ،
لا يذبلها وقع الأقدام ، ولكن يذبلها شم الأنوف .
فيم الطعان والضراب ! وفيم الرماء والخلاد ! إنما تقتلون
أنفسكم في باطل ، وتسفكون دماءكم في زور . ولكن ! هل ينفعكم
النصح ، أم هل تفيدكم الموعدة ؟ لقد اسودَّت قلوب ، وضلَّت عقول ،
ولقد أصغى الحكيم إلى نداء الحق ، وصمَّ عنه الجاهل المغرور .
ما الذي أعجبكم من الأيام فتها لكم عليه ؟ وما الذي راقكم
من الحياة فتفانيتم فيه ؟ إن الأيام لتسلك سبيلها إلى الفناء صمماً
عميماً ، حتى ليكاد المقامر أن يكون أوثق منها بالربح وأضمن
منها لإصابة الخير .

لقد مضى صاحب تيماء ، وبقيت تيماء بعده ناطقة بالعبرة
والموعظة لو تسمعون أو تعقلون . لقد أومات إليكم الثريا واعظة ،
وأشارت إليكم ناصحة ، ثم انقطع إيماؤها ، وسكنت إشارتها . لقد
أعجزت سرعتها سرعتكم ، وأعيا جِدُّها جدَّكم ، وشهدت نجومها
السته بما أغفلتم عنه من آية بينة . فعلمت كل ذلك فلم يفهم عنها
إلا الحكيم ؛ على أنه لم يعد من فهمه وفقهه إلا بالحسرة والأسى .

أَسْهَلُوا أَيُّهَا النَّاسُ فَقَدْ أَحْزَنْتُمْ ؛ وَيَاسِرُوا فَقَدْ عَاسَرْتُمْ ،
وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ فِي حَكْمِ الْمَوْتِ سَوَاءٌ ، لَيْسَ لَغْنِيكُمْ عَلَى فَقِيرِكُمْ
فَضِيلَةٌ ، وَلَا لِأَمِيرِكُمْ مِنْ حَقِيرِكُمْ مَزِيَّةٌ ، إِنَّمَا هِيَ طَرِيقُ مَسْلُوكَةٍ
إِلَى الْفَنَاءِ ، أَشَدَّ وَحْشَةً مِنَ الْبَيْدَاءِ ، وَأَكْثَرُ ظُلْمَةً مِنْ غَبْرِ الْفَلَاحِ .

أَلَا فليؤاس بعضكم بعضاً ! لقد استويتم في الموت فلم لا تستوون
في الحياة ! لم أجِدْ مِنْكُمْ فِي الْحَيَاةِ مُوسِراً وَمَعْسِراً ، وَمَنْعَماً وَبَائِساً !
أَلَا فلتتقسّموا تعب الحياة الفانية ، كما اقتسّمتم راحة الفناء المقيم .

فَقُتِدَتْ فِي أَيَّامِكَ الْعُلَمَاءُ
وَتَغَشَّى دَهْمَانَا الْغَيُّ لَمَّا
لِلْمَلِيكِ الْمَذْكُورَاتِ عَمِيدُ
فَالْهَلَالُ الْمَنِيْفُ وَالْبَدْرُ وَالْفَرْقُ
وَالثَرِيَا وَالشَّمْسُ وَالنَّارُ وَالنَّشْ
هَذِهِ كُلُّهَا لِرَبِّكَ مَا عَا
خَلَّنِي يَا أَخِيَّ أَسْتَغْفِرُ الْـ
وَيَقَالُ الْكَرَامُ قَوْلًا وَمَا فِي الْـ
وَأَحَادِيثُ حَبَّرَتْهَا غَوَاةُ
هَذِهِ الشَّهْبُ خَلَّتْهُ اشْبَكَتْ الدَّ
عَجَبًا لِلْقَضَاءِ تَمَّ عَلَى الْخَلَا

وَادْهَمَّتْ عَلَيْهِمُ الظُّلُمَاءُ
عُطِّلَتْ مِنْ وَضُوحِهَا الدَّهْمَاءُ
وَكَذَاكَ الْمَوْثِقَاتِ إِمَاءُ
قَدْ وَالصَّبْحُ وَالثَّرَى وَالْمَاءُ
رَةِ وَالْأَرْضُ وَالضُّحَى وَالسَّمَاءُ
بَكَ فِي قَوْلِ ذَلِكَ الْحُكَمَاءُ
هَ فَلَمْ يَبْقَ فِيَّ إِلَّا الذَّمُّ
عَصْرُ إِلَّا الشَّخْصُ وَالْأَسْمَاءُ
وَافْتَرَتْهَا لِلْمَكْسَبِ الْقَدَمَاءُ
هَر لَهَا فَوْقَ أَهْلِهَا إِمَاءُ
ق فَهَمَّتْ أَنْ تُبْسَلَ الْحُزْمَاءُ

أَوْ مَا يَبْصُرُونَ فَعَلَ الرَّدَى كَيْه
 غَلَبَ الْمَيِّتُ مِنْذُ كَانَ عَلَى الْخَلْدِ
 فَارْقُبْنِي يَا عَصْمَاءُ يَوْمًا وَلَوْ أَذِ
 وَأَرَى الْأَرْبَعَ الْغَرَائِزَ فِينَا
 إِنْ تَوَافَقْنَ صَبَحَ أَوْ لَا فَمَا يَنْ
 وَوَجَدْتُ الزَّمَانَ أَعْجَمَ فِطْرًا
 إِنْ دُنْيَاكَ مِنْ نَهَارٍ وَلَيْلٍ
 وَالْبَرَكَيَا حَازُوا دِيُونََ مَنَايَا
 وَرَدَ الْقَوْمُ بَعْدَ مَا مَاتَ كَعْبُ
 حَيَوَانٌ ، وَجَامِدٌ غَيْرُ نَامٍ ،
 وَلَوْ أَنَّ الْأَنْامَ خَافُوا مِنَ الْعَقَّةِ
 أَجْدَرُ النَّاسِ فِي الْعَوَاقِبِ بِالرَّحِ
 وَغَضَبِنَا مِنْ قَوْلِ زَاعِمٍ حَقٍّ
 أَنْتِ يَا آدَمَ السَّرْبُ حَوًّا
 قَرَمْتَنَا الْأَيَّامُ هَلْ رَثْتَ النَّحْ
 عَالَمٌ حَائِثٌ كَطِيرِ هَوَاءٍ
 وَكَأَنَّ الْهَمَامَ عَمَرَوْا بَنَ دَرْمَا
 وَبِالْبَهَارِ الشَّمِيمِ تَحْمِيهِ مِنْ وَط

فَ يَبِيدُ الْأَصْهَارُ وَالْأَحْمَاءُ
 قُومَاتٌ بِغَيْظِهَا الْحُكَمَاءُ
 لَمْ يَكُنْ فِي رَأْسِ شَاهِقِ عَصْمَاءُ
 وَهِيَ فِي جُثَّةِ الْفَتَى خِصْمَاءُ
 فَسَاكَ عَنْهَا الْأَمْرَاضُ وَالْإِغْمَاءُ
 وَجُنْدًا رَفِيَّ حِكْمِهَا الْعَجْمَاءُ
 وَهِيَ فِي ذَاكَ حِيَّةٌ عَرْمَاءُ
 سَوْفَ تَقْضَى وَيَخْضِرُ الْغَرْمَاءُ
 وَارْتَوَى بِالنَّمِيرِ وَفَدَّ ظِمْمَاءُ
 وَنَبَاتٌ لَهُ بِسُقْمِيَا نَمَاءُ
 بِي لَمَّا جَارَتْ الْمِيَاهُ الدَّمَاءُ
 حَمَّةٌ قَوْمٌ فِي بَدَنِهِمْ رُحَمَاءُ
 إِنْنَا فِي أَصُولِنَا لَوَّمَاءُ
 وَكَ فِيهِ حَوَاءٌ أَوْ أَدْمَاءُ
 أَم لَمَّا ثَوَى بِهَا قَرْمَاءُ
 وَهَوَافٌ تَضُمُّهَا الدَّأْمَاءُ
 عَ فَلْتُهُ مِنْ أُمِّهِ دَرْمَاءُ
 عَ مَعَادِيكَ أَرْبُ شِمَاءُ

وطعانٌ في باطل ورماء
تصنع أذنى فأذنه صماء
ولياليك ما لها إنماء
تولى وخلفت تيماء
ثم صدّ الحديث والإيماء
ثم الخَصيبُ والحدّماء
فر إلا بالحسرة الفهماء
وتساوى القَرَناء والجماء
ظُوفيه البيضاء والسحماء
لم تسهب عند هوله اليهماء
وهي من كل جانب صرّماء
حمة قومٌ عليهمُ النعماء

وعرّانا على الخطام ضرابٌ
أسود القلب أسود ومتى ما
قد رمى نابلٌ فأنمى وأصمى
إن رب الحصن المشيد بتيّما
أومات للحدّاء كف الثريا
شهدت بالمليك أنجمها الستة
فهمُ الناس كالجهول وما يظ
تلتقى في الصعيد أمٌ و بنت
وأنيقُ الربيع يدركه القية
وطريقى إلى الحمام كريبه
ولو أن البیداء صارمُ حرب
كيف لا يشرّك المضيقين في النزع

١٧

يا له من فقيه قد أكثر فيكم الوعظ ، وأثقل عليكم النصيح ،
وتردد على نسائكُم مرشداً هادياً ، ومذكراً داعياً ، وأنتم له
مصغون وحوله محتشدون ، تذرفون لمقاتته الدموع ، وتفطرون
لألفاظه القلوب ! أبصروا فقد عميتم ، وانتهبوا فقد غفلتم !

أَلَاَ إِن صَاحِبِكُمْ مَحْتَالٌ كَاذِبٌ ، وَغَرَّارٌ خَادِعٌ ، يَظْهَرُ
لَكُمْ النِّسْكَ ، وَيَخْفَى عَنْكُمْ الْإِفْكَ . يَنْهَاكُمْ عَنِ الْخَمْرِ وَهُوَ لَهَا
مَدْمَنٌ ، وَيَظْهَرُ لَكُمْ الْفَقْرُ وَإِنَّمَا أَفْقَرْتَهُ مَعْصِيَتُهُ . سَلَوْهُ عَنْ كَسَائِهِ
أَيَّنَ أَضْلَهُ وَفِيمَ فَقَدَهُ ، يَشْكُكُمْ لَكُمْ صَرْفَ الْأَيَّامِ وَتَتَابِعَ الْأَحْدَاثِ .
ثُمَّ سَلَوْا الْحِمَارَ عَنْ هَذَا الْكِسَاءِ تَجِدُوهُ عِنْدَهُ رَهِينًا بَدَنٌ مِنْ رَاحٍ
أَوْ زَقٍّ مِنْ عُقَّارٍ .

أَلَاَ إِن شَرَّ النَّاسِ الْمَقْتَرِفُونَ لِمَا يَنْهَوْنَ عَنْهُ . إِنَّهُمْ يَسِيئُونَ مِنْ
جَهَتَيْنِ : يَسِيئُونَ لِاقْتِرَافِ الْآثَامِ ، وَيَسِيئُونَ لَغَشِّ النَّاسِ وَتَضْلِيلِ
الْعُقُولِ .

رُوِيَ لَكُ قَدْ غَرَّرْتَ وَأَنْتَ حَرٌّ
يَحْرَمُ فِيكُمْ الصُّهْبَاءَ صُبْحًا
تَحْسَاها فَمِنْ مَزْجٍ وَصَرْفٍ
يَقُولُ لَكُمْ غَدَوْتُ بِلَا كِسَاءٍ
إِذَا فَعَلَ الْفَتَى مَا عَنْهُ يُنْهَى
بِصَاحِبِ حِيلَةٍ يَعْظُ النِّسَاءَ
وَيُشْرِبُهَا عَلَى عَمْدٍ مَسَاءً
يَعْمَلُ كَأَنَّمَا وَرَدَ الْكِسَاءَ
وَفِي لَذَّاتِهَا رَهْنُ الْكِسَاءِ
فَمِنْ جَهَتَيْنِ لَا جِهَةَ أَسَاءَ

١٨

مَا أَشَدَّ اغْتِرَارَنَا بِالْحَيَاةِ وَاسْتِرْسَالَتِنَا فِي الْأَمَلِ ! نَرْجُو الْعَيْشَ
وَاعْبِثِينَ فِيهِ ، وَنَرْجَى الْخَيْرَ مُتَبَرِّمِينَ بِهِ ، مَغْرَقِينَ فِي سُكْرِ عَمِيقٍ ،
لَا يَنْبَهِنَا مِنْهُ إِلَّا صَبِيحَةُ الْمَوْتِ وَدَعْوَةُ الْحِمَامِ .

نرجوا الحياة فإن همت هواجسنا
وما نفيقُ من السكر المحيط بنا
بالخير قال رجاءُ النفس إرجاء
إلا إذا قيلَ هذا الموت قد جاء

١٩

الصَّمتَ الصَّمتَ ! احتفظ به واحرص عليه ؛ فإنه مأمن
لك من الشر ومنجاة من الزَّلَل . اخبأ نفسك تحت لسانك ، لا
تحركه فيظهر ما يعيبها من نقیصة ، ودأ يشينها من رذيلة . ما
أرى كالكلام مصدراً للإثم ، ولا كالصمت مبرئاً منه .

الأناة الأناة ، والحزم الحزم ! لا يغضبَنَّك تفرق الناس
عليك وسبقهم لك وإن أحسست من نفسك الفضيلة وعرفت
لها التقدم ؛ فإن الجبل الشاهق لا يتأذى حين يعلوه الرقيب
صاحب الفتنة ، ويتسبَّح الشريد حايِف السيئة .

مم تهرب ، وإلى أين تفر ! الريح الريح ! لقد أزعجك
الوباء الذي ألم ببلدك ، فهل تعرف بلداً غير موبوء ! تفر من
رذائل أصحابك ، فهل تعرف أصحاباً خلواً من الرذائل ! !
البس العالم على علاقته ، واصحبه على ما فيه من سوء .

القناعة القناعة ! أرح نفسك من طمع لا يفيد ، وشره

لا ينفع ، ولا تلتزم الحظ ، ولا تنكر المصادفة : فكذلك طبيعة
الزمان . انظر إلى الحسناء الفاتنة يسببها القبيح الشرير ، وانظر
إلى العقار ذات الجوهر النقي يسببها ألام الناس طبعاً وأكدرهم
خلقاً . أريح نفسك من هذا العناء ؛ فإن الغاية واحدة ، وإن
الملك والفقير في حكمهما سواء .

قد نال خيراً في المعاشر ظاهراً
باء الكلام بمأثم والصمت لم
إن يرتفع بشر عليك فكم غدا
مهلاً أمن وبأفرت وهل ترى
تسبب الكرائم والكهيت شرابها
حلف العباءة سوف يصبح مثله
من كان تحت لسانه مخبوءاً
يك في الأعم بمأثم ليبوء
علم يتابع فتنة مربوءاً
في الدهر إلا منزلاً موبوءاً
يلفتي لألام شارب مسبوءاً
ملك ويترك طيبه المعبوءاً

٢٠

احجبوا عن نسائكم وبناتكم من العلم ما لا ينفعهن ولا يجدي
عليهن . دعوا ذلك إلى ما يفيد المرأة من حيث هي أم وصاحبة
بيت . علموها النسج والغزل والردن ، ودعوا القراءة والكتاب .
أقرئوها الحمد والإخلاص ؛ فهما تجزئان عنها في الصلاة ما
تجزئ عنها يونس وبراعة .

أحجبوا أصواتهن عن الآذان ، كما تحجبون أشخاصهن عن
 الأبصار . إنكم لتهتكون السر حين تستمعون من خلفه غناء القيان .
 علموهن الغزل والنسج والردّ نَ وخلصوا كتابةً وقراءة
 فصلاً الفتاة بالحمد والإخ لاص تجزى عن يونس وبراءه
 تهتك السر بالجلوس أمام المس تر إن غنت القيان وراءه

٢١

آثر نفسك بالعزلة ، وزينها بالوحدة ؛ فإنك إن تكن راغباً
 فى الكمال طامعاً فيه ، لم تجد أدنى إليه من الوحدة التى هى
 أخص صفات الله . وإن تكن رابئاً بنفسك عن الشرضاناً بها
 على الأذى ، فلن تجد أوقى لك ولا أجدى عليك من الرغبة عن
 عشرة الناس ، ملوكهم وسوقتهم ، سراتهم وصعاليكهم . .
 أجل ! إنك لن تجد أحفظ لك من العيب ، وأضنّ بك
 على الريب ، وأنزه لنفسك ، من الأذى ، وأعصم لقدرك من
 الضعة ، كالعزلة واجتناب الناس ، وإن جراً عليك الفقر
 والضيق . العزلة مكمّن عيوبك ، وستر لما أنت فيه من رذيلة ،
 فاحذر أن تهتك هذا السر فيظهر الناس على ما خلفه . والعزلة جنة

لك من شرور الناس وأذاتهم ، فاحذر أن تدع هذه العجُنة فينالكَ من ضررهم ما لا تطيق .

أف للناس رجالاً كانوا أو نساءً ؛ فإنهم أهل شروأذى ، يمتقتهم الحكيم ويذمهم العاقل ، لا يحمد منهم خلة ولا يرضى لهم خلقاً .

هم في الليل وفي النهار جناة أشرار ، لا يعصمك منهم إلا اجتنابك لهم .

إني لأعظك بالعزلة حين قدِّرت عليك الحياة فلم تجد عنها

مرحلاً . وإني لأكره الحياة لمن لم يبلها ، وأمقت العيش لمن لم

يذقه ، وأتمنّى للوليد الذي لمّا يعرف من الحياة حلوّاً ولا مرّاً ولما ير

من العيش خيراً ولا شراً ، موتاً يريحه من مستقبل أيامه ومستأنف

زمانه . موتاً يصرفه عن ثدى أمه قبل أن يرتضع منها قوتاً يشوبه

للشر وغذاءً يخالطه السوء . موتاً يقطع ما ينطق به لسان حاله من

عبارات الشك في مستقبل أمره ، أ يكون خيراً أم شراً ، وعرفاً أم

نكراً ؟ أ يكون إلى أهله محسناً أم مسيئاً ، ولهم نافعاً أم ضاراً .

توحّد فإنّ الله ربّك واحدٌ ولا ترغبن في عشرة الرؤساء

يقول الأذى والعيب في ساحة الفتى وإن هو أكدى قلةُ الجلّساء

فأفّ لعصر يهيم نهارٍ وحنّسٍ وجنسى رجال منهم ونساء

وليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

يقول لها من قبل نطق لسانه تفيدين بي أن تنكبي وتساى

الويلُ كل الويل للعلماء ، والخُسْر كل الخُسْر للحكماء ،
إذا لم يقدر لعلمهم أن ينفع الناس شيئاً ، ولم يتحّ لحكمتهم
أن تكفّ عنهم سوءا .

لقد تم في الناس قضاء الله بما هو كائن من خير وشر ،
فهو يمضي لا معقّب لحكمه ولا رادّ لأمره . وعبيثاً يحاول
المصلحون أن يغيروا منه قليلاً أو كثيراً . أجل ! لقد أمضى
الله القضاء بما شاء ، فليس لك منه مفرّ ولا معتصم . دوناك
الأرض فاتخذ فيها نفقاً ، ودوناك السماء فاتخذ إليها سلماً ؛
فإن أعجزك ذلك ، وهو معجزك من غير شك ، فأذعن لما قضى
الله عليك ؛ فإنك لن تستطيع من ملكه خروجاً ، وإن تملك من
قدرته إبقا .

سرّ في آثار من مضى قبلك ؛ فإنك لهم تابع ، ولخطاهم
مترسّم . عاشوا عبيداً أذلاء ، فعبس مثلهم عبداً ذليلاً .
لقد ملكني العجب من هذا العالم ، فما أنفك مغرقاً فيه ،
مطيلاً له ، أرى فيه السعيد والشقي ، والفقر والغنى ، وأجد فيه
الريّان يكاد يقتله الرى ، والصديان يكاد يخترقه الصدى ،

والدهر على الناس مسيطر ، قد عظم ساطانه واشتدت سطوته ،
ينالونه بما شاءوا من عيب له وطعن عليه ، فلا يصيبه منهم شيء
ويرميهم بسهامه المتصلة ونصاله المتتابعة ، فلا يخطئهم منها
سهم . جيدوا ما شئتم في عناد الدهر وخصامه ، وفي ذمه
والزراية عليه ؛ فليس ذلكم برادٍ عنكم حكمه ، ولا بقابض
عنكم يده . إنه عليكم لمسيطر : يميتكم ويحيل أجسامكم إلى ما
شاء من مادة ، ويمنحها ما أحب من صورة . انظروا إلى هذه
الغصون النضرة ، والأشجار الخضرة ، هل هي إلا عظامكم بعد
البلى ، وهل ماؤها إلا دماؤكم بعد الفناء ! !

ألا إن الشر في هذه الحياة واقع ، ليس له دافع ؛ وهو
نقاد لا يغفل ، وباحث لا يخطئ . ألا وإن أكثر الناس منه
حظاً وأعظمهم منه نصيباً ، أشدهم له فهمًا وأكثرهم منه
احتياطا . أبيعوا بينكم الثروة ، وأشيعوا فيكم المعروف ؛ فإن
ينفعكم حرص ، وإن يفيدكم اقتصاد ، وإن يكون منفقكم جواداً
ولا باذلكم كريماً حتى يكثُر الإنفاق ويوسع البذل .

أقدموا ولا تحجموا . دعوا التردد جانباً وانبذوه ناحية ،
فإنكم صائرون إلى ما تكرهون طائعين أو راغمين . أقدموا أعزاء
قبل أن تكرهوا أذلاء صاغرين .

لقد آن لكم أن تستبصروا ، حان لكم أن تنتبهوا ، وحق عليكم أن تفيقوا . ألا إن ما أنتم فيه من سُنَّة وسيرة ، ومن شريعة ودين ، ليس إلا مكر الأقدمين ، اتخذوه سبيلا إلى جمع الحطام ، وإحراز الثروة ، فأدركوا ما أمّلوا ، وبلغوا ما أرادوا ، ثم مضت أيامهم وانقضت مدّتهم ، فلتبّد معهم سنتهم السيئة وأصولهم الضارة .

لقد خدعكم الحادعون ، وعبث بالآبابكم العابثون ، فنهّوكم الحياة الثانية ، وزعموا لكم انقضاء الدهر وانتهاء أجله ، وأنه عنكم مرتحل ولكم تارك ، وأن الأيام لم يبق فيها إلا بقية الروح ، في جسم المذبوح . لقد كذبوا ! ما يعرفون للدهر أجلا ، وما يعلمون له انقضاء ، وإنما هي ظنون مرجّسة ، وأنباء متوهّمة . ألا فأعرضوا عن مقالة الزعماء الكاذبين ، والأغوياء المضلين . لا تيأسوا من الدهر ولا تطمعوا فيه ، ولكن القصد بين الحسنتين ، والاعتدال بين الحصلتين ؛ فإن اليأس من الدهر هلاك ، والاطمئنان إليه غرور . وكيف يسر ساعة في الدهر من يعلم أن له من الموت غريما لا يردّ ، وطالبا لا يدفع .

إنكم لتخدعون عن أنفسكم بأواصر القُرْبى وروابط المحبة ، وإنما هي الشر كل الشر والخطر كل الخطر . فالحذر الحذر

من أضرارها ، والتقية - التقية - من آثامها ! فما آذاك مثل قريب ،
ولا ضررك مثل حبيب .

إذا كان علم الناس ليس بنافع
قضى الله فينا بالذى هو كائن
وهل يابق الإنسان من مُلك ربه
سنتبع آثار الذين تحملوا
لقد طال في هذا الأنام تعجبي
أرامى فتشوى من أعاديهِ أسهمي
وهل أعظم إلا غصونٌ وريقة
وقد بان أن النحس ليس بغافل
ومن كان ذا جود وليس بمكثر
نهابٌ أموراً ثم نركب هو لها
أفيقوا أفيقوا يا غواةُ فإنما
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا
يقولون إن الدهر قد حان موته
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاءه
وكيف أقضى ساعةً بمسرة
خذوا حذراً من أقربين وجانب

ولا دافع فالحسر للعلماء
فتم وضاعت حكمة الحكماء
فيخرج من أرض له وسماء
على ساقه من أعبد وإماء
فيا لبراء قوبلوا بظماء
وما صاف عنى سهمه برماء
وهل ماؤها إلا جنى دماء
له عملٌ في أنجم الفهماء
فليس بمحسوب من الكرماء
على عنيت من صاغرين قِماء
دياناتكم مكرٌ من القدماء
وبادوا وماتت سنة اللؤماء
ولم يبق في الأيام غير ذماء
فلا تسمعوا من كاذب الزعماء
وأعلم أن الموت من غرمائى
ولا تذهلوا عن سيرة الخزماء

لَتَعْرِفَ فِي يُسْرِكَ ، صَدِيقَكَ فِي عُسْرِكَ ؛ فَإِنْ مِنْ سَوْءِ النِّيَّةِ
 وَقَبْحِ الْحَالَةِ أَنْ تَتَّخِذَ الْأَصْدِقَاءَ تَدْفِعَ بِهِمْ عَنْ نَفْسِكَ الْأَذَى
 وَتَقِيَهَا بِهِمْ الْمَكْرُوهُ أَيَّامَ بؤْسِكَ ، حَتَّى إِذَا أَيْسَرْتَ وَأَعَسَرُوا ،
 ضَرَبْتَ عَنْهُمْ صَفْحًا وَطَوَيْتَ عَنْهُمْ كَشْحًا . هَذِهِ خَلَّةٌ مِنَ
 الْأَثَرَةِ سَيِّئَةٍ ، وَخَصْلَةٌ مِنْ حُبِّ النَّفْسِ مَذْمُومَةٍ . وَإِنَّمَا الْحَقُّ
 عَلَيْكَ أَنْ تَخْلُصَ لِلْأَصْدِقَاءِ ، فِي النِّعْمَاءِ وَالْبَأْسَاءِ .

وَإِنْ امْرَأٌ قَدْ أَمَدَّتْهُ الْحَيَاةُ بِالنِّعْمَةِ وَالثَّرْوَةِ فَهُوَ مِنَ الْعَيْشِ
 فِي دَعَاةٍ وَخَفْضٍ ، يَقْضِي حَاجَتَهُ مِنَ اللَّذَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، ثُمَّ
 يَتْرِكُ إِخْوَانَهُ فَرِيْسَةً لِلْعُدْمِ وَدَرِيْثَةً لِلْبؤْسِ ، لَجَاهِلٌ حَقَّ الْأَخُوَّةِ
 وَجَاهِدٌ وَاجِبُ الْمُوَدَّةِ .

وَلَيْسَ مِنَ الْحَزْمِ وَلَا مِنْ صَدَقِ الرَّأْيِ لِلْسَخْنَى الْجَوَادُ أَنْ
 يَشِيعَ السَّخَاءُ وَيَذِيعَ الْجُودُ فِي أَهْلِهِ وَأَقَارِبِهِ قَابِضًا يَدَهُ عَنْ غَيْرِهِمْ
 مِنَ النَّاسِ ؛ فَإِنْ لِأَهْلِهِ وَلِأَقَارِبِهِ عَلَيْهِ حَقًّا هُوَ قَاضِيهِ ، وَدَيْنًا
 هُوَ مُؤَدِّيهِ ، فَأَمَّا الْأَبْعَدُونَ فَالْتَكْرَمُ عَلَيْهِمْ فَضِيلَةٌ ، وَالْإِحْسَانُ
 إِلَيْهِمْ نَافِلَةٌ ، وَالتَّعَهُدُ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِمَوَاضِعِ الْأُمُورِ .

إذا صاحبتَ في أيامِ بؤسٍ
ومنْ يَعدِمُ أخوه على غناهُ
ومنْ جعلَ السخاءَ لأقربيه
فلا تنسَ المودَّةَ في الرِّخاءِ
فما أدَّى الحقيقةَ في الإخاءِ
فليسَ بعارفِ طرقِ السخاءِ

٢٤

أيها الملوكُ الأعزَّاءُ ، والأقْيالُ المترَفونَ ! لقد فزتم بما تحبون
من طول الحياة وتأخر الأجل ؛ فما لكم لا تبتدرون الخير ولا
تستبقون إلى الحسنَةِ ! ما لكم ترجئون تشييد المكرمات وبناء
الصالحات إلى مستقبل من الأيام قد لا تدركونه ، ومستأنف من
الدهر قد لا تبلغونه ، مغترين بإملاء الأيام لكم وإبقائها عليكم !!
ما لكم لا تَدَعُون ما أنتم فيه من خمول ، ولا تتركون ما أنتم
عليه من ضعف ، مُسَحَّجِينَ لا تُقَدِّمون ، ومبْطِئِينَ لا تُسْرِعُونَ
مستنجمين إلى اللذة ، لا تطمح نفوسكم إلى المجد ، ولا تسمو إلى
المآثر الباقية ! أقدموا ! قرب مترف شهد الهيحاء . ورب عاشق
للنساء كلف بهن صريع بجماهن ، قد ترك اللهو والباطل ،
ورغب في الجلد فأبلى فيه البلاء الحسن .

أيها الناس ! أنتم مصدر ما تاقون من ظلم ، وأصل ما
تقاسون من عسف . فنيتم في الملوك وأذلتم لهم أنفسكم ، تشقون

ليسعدوا ، وتخافون ليأمنوا ، وتأرقون ليناموا . غلوتهم في ذلك
 وأسرفتم فيه ، فقد ستهم طائفة منكم عن الخطأ ، ووصفتهم
 بالعصمة ، وزعمت أنهم الناطقون والعالم صامت ، والمهتدون
 والحياة جائرة . انتظروا الإمام المعصوم ، ورجعوا الناطق المرشد
 والهادي الذي لا يخطئ . لقد كذبت ظنونهم ، وساءت آراؤهم
 وأخطئوا قصد السبيل . إن هذا الإمام الذي ينتظرونه ، والهادي
 الذي يرجونه ، لبين ظهرائهم ، يأمرهم بالعرف فلا يأمرون ،
 وينهاهم عن الجهل فلا ينتهون ، يرغبهم في الخير فيصدون عنه ،
 ويرهبهم الشر فيرغبون فيه . ذلك هو العقل ، يخلص لهم
 فيستغشونه ، ويجد في نصيحهم فيختانونه . أطيعوه أيها الناس
 تهتدوا ، واتبعوه ترشدوا ؛ إنما هو مصدر الرحمة ، ومنشأ
 النعمة ، في السفر والحضر ، وفي الظعن والإقامة .
 أيها الناس ! إنكم لا تنتظرون إماماً معصوماً ، ولا ترجون
 هادياً موفقاً ، وإنما هي بدع منتهكة ومذاهب مخترعة ،
 اتخذتموها أسباباً تصلون بها بين رؤسائكم وبين الدنيا ، وجعلتموها
 طرقاً ترضون بها تلك النفوس التي لا ترضى ، والأهواء التي
 لا تقنع ، لا يصدكم عن ذلك رحمة ، ولا تعوقكم عنه رافة ،
 لا تبالون أظلمتم قوياً أم ضعيفاً ، ولا تحفلون أعسفتم رجلاً أم

امرأة ، كل ذلكم عندكم سواء في مرضاة الرؤساء . ذلك شأن زعيمكم الذى جمع الزنج بالبصرة ، فأفسدوا فيها ولم يصلحوا وأساءوا ولم يحسنوا ، روعوا العذراء فى خدرها ، وأزعجوا الآمن فى سرّبه . وذلك شأن زعيمكم القرمطى بالأحساء ، جمع أوشاب الناس وقصاماتهم فأزعج الحاج وانتهك حرمة البيت وأهدر دماء معصومة ، وأزهق نفوساً محرمة ، كل ذلك ليرضى نفسه زاهداً إلا فى الشر ، رغبة إلا عن المنكر .

ولكن ! هل يجدى النصيح ، وهل تنفع الموعظة ، وهل يحتمل قول الحق ؟! ألا إنى أعظك أيها المصلح الحكيم أن تعتزل الناس وتخالى بينهم وبين ما يشتهون ! فما أعرف أثقل عليهم من كلمة حق ، ولا أبغض إليهم من دعوة إلى خير .

ياملوك البلاد فزتم بنس عا
 مالكم لا ترون طروق المعالى
 يرتجى الناس أن يقوم إمام
 كذب الظن لا إمام سوى العقه
 فإذا ما أطعته جلب الرح
 إنما هذه المذاهب أسبا
 غرض القوم متعة لا يرقو
 عمر والجور شأنكم فى النساء
 قد يزور الهيجاء زير نساء
 ناطق فى الكتيبة الخرساء
 ل مشيراً فى صبحه والمساء
 مة عند المسير والإرساء
 ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
 ن لدمع الشمام والخنساء

كالذى قام يجمع الزنج بالبرص مرة والقمر مطى بالأحساء
فانفرد ما استطعت فالقائل الصا
دق يضحى ثقلاً على الجلساء

٢٥

ما أشد بغض النفس للنصيحة وامتناعها على الإرشاد !
لقد نصحت لها مخلصاً ، وأوصيتها صادقاً ، فما سمعت لى ،
وما أصغت إلى . وهى بعد ذلك كثيرة الخطأ جملة الزلل ،
لا يبلغ الإحصاء أغلاطها ، ولا ينال العد زلاتها ، غافلة
عن الحق ، بصيرة بالباطل ، زاهدة فى القصد ، حريصة
على الإسراف ، تكذب وتشتى وتكلف السعى والمشقة فى سبيل
الرزق . ولو أنها ودعت واطمأنت بلحائها رزقها المقدور
ونصيحتها المقسوم ، سواء نأى عنها مكانه أم دنا ، وسواء
قرب أو بعد ، ولكن العناد مطية الألم ، وسبيل العناء .
أوصيت نفسى وعن ود نصحت لها

فما أجابت إلى نصحتى وإيصائى

والرمل يشبه فى أعداده خـطـى
والرزق يأتى ولم تبسط إليه يدي
فما أهـم له يوماً بإحصاء
سيان فى ذاك إدنائى وإقصائى
لو أنه فى الثرىا والسماك أو الشع
رى العبور أو الشعرى الغميصاء

مثَل النفس الإنسانية ثبتت طبيعتها لا تتغير ، واستقرت
أصولها لا تتبدل ، ثم عرضت لها من الحياة مظاهر أثّرت فيها
فغيرت أهواءها وبدلت شهواتها تغييراً لا يلبث أن يزول ،
مثل البحيرة الهادئة والغدير الساكن عصفت بهما الريح فهاجت
أواجههما وأنشأت على سطحيهما من الحبّ باب كُرّات لا تلبث
أن تزول بسكون الريح . ذلك مثل " صادق " لنفس الإنسان الثابتة
وأهواء المتغيرة . عنها صدرت تلك الأهواء ، فخيّل إليك أنها
باقية بقاءها ، ثابتة ثباتها ، ولكنك لا تلبث أن ترى حالاً طارئة
وهو جديدًا . لقد كنت تحب أسماء وتكاف بها ، وتعتقد أن
غرامك بها باق بقاء الدهر ، خالدٌ خلود الزمان ، فإذا طول
الآمد واختلاف ألوان الحياة قد عبث بهذا الغرام فغيره وأخذ
يمحوه من قلبك قليلاً قليلاً ، ويحل مكانه غراماً طريفاً ، ثم
أصبحت وقد نسيت أسماء ، وأصبحت بهند كلفاً مشغوفاً . وما
أراك إلا سالكماً بهذا الحب الجديد سبيلك في ذلك الحب التليد .
أجل ! ليس في العالم طريف ولا في الحياة جديد ، وإنما

العالم والحياة مظاهر يماثل بعضها بعضاً . فالأقوال مرآة الناس
منها السيئ والحسن . والناس مرآة الأيام ، ثابتة في نفسها
متغيرة في شكلها ، منها الظلمة والنور ، ومنها الليل والنهار ؛
ظاهر متغير ، وطبيعة ثابتة دائمة . ضياء يملأ النفوس انشراحاً ،
وظلمة تملؤها انقباضاً ، والحقيقة واحدة ؛ فلذلك يدور بالخير
والشر ، ويجرى بالسعد والنحس .

لم أر أشد حمقاً ولا أكثر بليهاً من قوم ظنوا تغيير الزمان
وتبدل الأيام ، وانتظروا أن تطيعهم حركة الفلك فتستحيل
من شر إلى خير ومن بؤس إلى نعيم ؛ إذ ذاك تصلح النفوس
الفاسدة ، وتصح الطبائع المريضة ، وتملأ الأرض عدلاً كما
ملئت جوراً ، وتسكن الأرنب إلى السبع ، ويأنس العصفور
إلى الصقر . خيالٌ ما أبعده من الحق ، وأدناه من المحال !
ألا لا يخدعنا هذا الوهم ، ولا يغرنك هذا الأمل ! إنما
العالم على حاله خيرٌ يمازجه شر ، ونعيم يشوبه بؤس ؛ فلا تحاول
له تغييراً ولا تطلب له تبديلاً . ولكن إذا استطعت أن تتردد
بنفسك الصادية مناهل الخير عذبة ، وشرائع الفضيلة صافية ،
فافعل ، فأنت الموفق السعيد .

القلب كالماء والأهواء طافيةٌ عليه مثل حباب الماء في الماء

منه تنهتْ وَيَأْتِي مَا يُغَيِّرُهَا فَيُخْلِقُ الْعَهْدَ مِنْ هِنْدِ وَأَسْمَاءِ
والقول كالخلق من سَيِّءٍ ومن حسن والناس كالدهر من نور وظلماء
يقال إن زماناً يستفيد لهم حتى يُبدِّلَ من يؤسى بنعماء
ويوجد الصقر في الدرّ ماءً معتقداً

رأى امرئ القيس في عمرو بن درماء
ولست أحسب هذا كائنًا أبدًا فابغ النور ودلنفس ذات أظماء

٢٧

إنما الزمان إناءٌ مفعمٌ بالحوادث ، مملوء بالعبر والمواعظ ،
محببٌ لا ترى ما فيه العيون ، ولا تبلغه الظنون ، حتى يزيح
ستره ، ويبيح سرّه . وهو متصل الحركة متشابه الأجزاء ،
ليس بين ساعاته تباين ، ولا بين آنائه اختلاف . فما أشبهه في
ذلك إلا بالقصيدة الجيدة من الشعر قد استقامت للشاعر قوافيها
وانقاد له رويها ، فلم ينجح إلى إبطاء ، ولم يضطر إلى إكفاء .
وهو معتدل السير ، ليس له استتار ، وليس يوصف بسرعة ولا
بطء ، وليس يملك إنسان رياضته ، ولا يستطيع أحد أن يحمله
على أن يمضي حثيثاً أو مترثلاً . ذلك شأن الزمان ، وهذه صفاته

كلها لازمة لطبعه ، ملائمة لمزاجه ، ليس لأحد أن يغير فيها أو
يبدل منها . فأما المكان فأحقه أن يأنس إليه العاقل ويرغب فيه
الحكيم تلك الصحراء المقفرة والبيداء الموحشة ، بأنس فيها
الدليل في ظلمة الليل إلى القطة ، وفي ضوء النهار إلى لمعان الآل .
هذه الفلاة الموحشة الغامرة آنس من المدنية الآهلة العامرة .
تلك يخلو فيها الحكيم إلى نفسه ، تغتبطاً بخيرها مصلحاً لشرها ،
لا يسمع فيها أذاة ولا لغواً ، ولا يرى فيها منكراً ولا عيباً .
وهذه يقيم فيها العاقل على أشد النارين ، حراً ، وأعظمهما شراً :
فإما أن يشهد مصرع الحق ومقتل الفضيلة ، بين يدي الباطل
والرذيلة ، ويظل معقود اللسان ، مضطرب الجنان ، رغبة في رضا
الجمهور ورهبة من غضبه . وإما أن ينصر الحق المغلوب ،
ويؤيد الفضيلة المقهورة ، فيلقى ما شاء الجهل من أذاة ، ويقاسى
ما أحب الغي من ألم ، دون أن يظفر بحاجة أو يصل إلى غاية .
في هذا الزمان تعيش ، وفي هذه المدينة تحيا ، ليس لك من
هذا بد . مكان قلق ، وزمان نزق ، ولكنه صائب الرمية ،
لا يطيش سهمه ، ولا يخطئ نصله .

فإن كان في هذه الحياة ما يسر من مواهب تعلى القدر
وتبعد الصيت ، فما أحسب هذا إلا غروراً بالباطل وافتناناً بالزور

فإن تلك المواهب عارية مردودة ودين^{٢٨} لا بد أن يقضى . ولن يسترد منك هذه العارية ، ولا يتقاضى منك هذا الدين إلا الموت وحسبك بالموت موقظاً للنائم ، ومنبهياً للغافل .

الساعُ آنيةُ الحوادث ماحوتُ	لم يبد إلا بعد كشف غطاءها
وكأنما هذا الزمانُ قصيدةُ	ما اضطرّ شاعرُها إلى إبطائها
ليست لياليه مُحَسَّنةٌ كائن	وُصفت بسرعتها ولا إبطائها
والمصر آنس منه خرقُ مفازة	أنس الدليلُ بثقاتها مع طائها
وسهام دهره لا تزال مُصيبةٌ	صُرِفَتْ بإذن الله عن إخطائها
إن المواهب كلها عاريةٌ	ومن السفاهة غبطةٌ بعطائها

٢٨

لقد طالما تحدث الناس وامتلات كتب التاريخ بما اختصت به مصر من وباء يغير على أهلها حيناً بعد حين ، ويفتك بهم آنناً بعد آن ، حتى أصبحت هذه السمعة لمصر كأنها طبيعة لا تبرح وصفة لا تزول ، ولا يشاركها فيها بلد آخر من البلاد . خطأ قبيح ووهم فاحش ، فإنه لم تخل مدينة من المدن من وباء

مغير أو داء فاتك ، وأى محلة خلت من الموت ، وأى منزل برئ
من الردى ! وهل تعرف أشد من الموت داء ، وأخوف من الردى
وباء !

لقد حدثنا العقل وصدق التاريخ بأن الموت لنا غاية ،
والحسام لنا نهاية ، لم تسلم منه أمة ولم يأمن منه جيل . يرمى فلا
يخطئ ، ويقتل فلا يباء بقتيل ، ليس لأحد أن يطلب إليه ثأراً
ولا أن يقضى منه ونراً . قد اتخذ له مرأى يرقب منها صيده ،
ويربأ منها فريسته ؛ فليس ينجى الفتى من سهمه إقامة ولا طعن
وليس يحميه من نصله حل ولا رحيل .

بل كائن في كل أرض وبأ	ما خص مصرأ وبأ وحدها
فالغوث من صحة ذاك النبأ	أنبأنا اللب بلتميا الردى
ربيعة أو ضر أو سبأ	هل فارس والروم والترك أو
أن يظهر الدهر لها ما خبأ	ناجية في عز أملاكها
كل قتل قتلت لم يبأ	ومن سجايا نبه أنها
يلحظه المقدار بالمرتبأ	إن سار أو حل الفتى لم يزل

الجدَّ الجدَّ في التقوى وإيثار الخير ، والحرص - الحرص على
 طهارة النية وصفاء القلب ؛ فإن التقوى خير ما أحرزته لنفسك
 من زاد ، وأفضل ما ادخرته لها من بقية .

أوه ! كم يملأ قلبي الفزع ، وكم يملكه الهلع حين أذكر
 الغد ، ذلك اليوم الذي نبئونا به وخوفونا إياه ، يوم يتصبب
 العرق تصبب الماء ، ويوم تذوب الأكباد وتبلغ القلوب الحناجر !
 لقد أذهل حينما أذكر ذلك اليوم ، وأرى ما علق بنفسى من الشر ،
 وما ران على قلبي من السوء .

لقد يحتاج الثوب تلبسه إلى غاسل يزيل دنسه ويردّه نقيّاً
 نظيفاً . ولو أن لقلبي من النقاء والصفاء ما لهذا الثوب الذي يكدر
 ويصفو ، ويدنس وينظف ، لحمدت العاقبة ، ولرجوت حسن
 المآب .

ما ألد الموت اليسير تتبعه الراحة الباقية ! وما أعذب مذاقه !
 لقد أوثره على العيش الرضى والبال الهنى . ذلك لا يشوبه كدر

ولا يناله تنغيص . وهذا عرضة لما ينبغي أن يحذر العاقل من
خطب الزمان .

لقد بلونا العيش أطواره ، وحلبنا الدهر أشطره ، فلم نبـلُ
إلا مرًّا ، ولم نلق إلا شرًّا ، ولم نشهد غير الشقاء .

لقد تقدم آباؤنا وأصدقاؤها فسبقونا إلى الموت رائقًا أو رزقًا
فكم يذنبنا الشوق للقائهم ، ويملكنا الحرص على جيرتهم . ولكن
هل تصدق الأنباء وتوفى المواعيد ، ويكفل لنا الموت لقاء الأحباء
وجيرة الأخلاء ؟ ! كم أستلذ الموت وأستعذبه ، وكم أطلبه وأتمناه
لو أن لتلك المواعيد من الصحة حظًا ، ومن الصدق نصيبًا .

تقواك زاد فاعتقد أنه	أفضل ما أودعته في السقاء
آه غداً من عرق نازل	ومهجة مولاتي بارتقاء
توبى محتاج إلى غاسل	وليت قلبي مثله في النقاء
موت يسير معه راحة	خير من اليسر وطول البقاء
وقد بلونا العيش أطواره	فما وجدنا فيه غير الشقاء
تقدم الناس فيا شوقنا	إلى اتباع الأهل والأصدقاء
ما أطيب الموت لشرابه	إن صح للأموال وشك التقاء

تبارك الله منفرداً في سلطانه ، مستبداً بعظمته وجبروته ،
ليس له من عباده كفء ولا من خلقه شريك ، لا تخفى قدرته
ولا تغمض قوته . وكيف تخفى القدرة القاهرة على ذى حظ من
عقل ، أوتعزب القوة المسيطرة عن ذى نصيب من رشاد .

أى قساة القلوب وجفافة الطباع ! أى عُمى العيون وصُمَّ
الأسماع ! لقد ظهرت لكم الآية بيينة ، وقامت عليكم الحجة
ظاهرة ، وأنتم مع ذلكم تجادلون في الحق ، وتسابقون إلى الباطل
تنتظرون بإيمانكم ما منتكم الأساطير من خوارق العادة وكواذب
المنى ، ناراً تظهر من كل أرض ، وتحشر الناس من كل صوب ؛
هنالك تؤمنون ويومئذ تصدقون ! لقد ضلت الأحلام وجارت
العقول ، وكذبت الآمال من اغتر بها وتعلق بأسبابها . أيها
الناس ما تنتظرون بإيمانكم وما تتربصون بإصلاح أنفسكم ! !
لقد أصبح اليأس منكم حقاً ، والرجاء فيكم حمقاً . ولقد أصبح
لين الأحجار وسقوط الكواكب وبطلان حركة الفلك أيسر من أن

يوجد فيكم الأصفياء ، أويكون منكم أهل الخير الصالحون .

لقد فقد فيكم الصدق ، وطمست بينكم أعلام الهدى !
ولقد حُـبِّبَ إليكم الغدر وقل بينكم الوفاء ! ولقد اغتذت نفوسكم
بالشر وارتوت بالرديلة ، حتى أصبح العاقل الحكيم يعتقد أن
ليس له من علته بكم شفاء ، ولا من مصيبتة فيكم برء إلا
الموت المريح .

أجل ! لم أر ألام منكم طبعاً ، ولا أدناً منكم أصلاً ، ولا
أدنى منكم إلى المين ، ولا أحرص منكم على كفر النعمة وجحود
الصنيعة ! أولئك الآباء ينفقون عليكم صفوحياتهم ونضرة شبابهم
ويبلون فيكم جيدة أيامهم ، حتى إذا أدركهم الهرم وآن لهم أن
يتقاضوا منكم دينهم ، ويشابوا بما أحسنوا إليكم من صنع ،
جز يتموهم عقوقاً ، ولقيتموهم جحوداً وكفرًا . يجدون اعترافهم بكم
لذة ، وترون براءتكم منهم نعمة ! لساء ما كافأتم الحسنة وشكرتم
المعروف ! ولساء ما جزى الدهر أولئك الآباء برحمتهم قسوة ،
وبرأفتهم غلظة ، وبدلهم من برهم عقوقاً . ولو أنه إذ أنزلهم منكم
هذا المنزل القلق ترك لهم الأخلاء ، وأبقى لهم على الأصفياء ، لكان
لهم عنكم سلوة ، ولكنه يخترم أصدقاءهم ، ويشتف أحباءهم ،

كأنما هو يشئني بذلك من علة معضلة وداء عيَاء .

انفرد الله بسلطانه	فما له في كلِّ حال كِفَاءٌ
ما خَفِيتُ قدرتهُ عنكم	وهل لها عن ذي رشاد خفاء
إن ظهرت نارٌ كما خَبَّرُوا	في كل أرض فعلينا العفاء
تهوى الشريَّاتِ ويلين الصفا	من قبل أن يوجد أهل الصفاء
قد فقد الصدقُ ومات الهدى	واستحسن الغدرُ وقلَّ الوفاء
واستشعر العقْلُ في سُقمه	أن الردى مما عناه الشفاء
واعترف الشيخ بأبنائه	وكلهم يندُر منه انتفاء
رَبِّهِمْ بِالرفق حتى إذا	شَبَّوا عِنا الوالد منهم جفاء
والدهرُ يشتف أَخِلَاءَهُ	كأنما ذلك منه اشتفاء

٣١

لقد قضى الله على الإنسان أن يقضى حياته تعباً مكدوداً ،
ويمضى أيامه معدّباً شقيّاً ؛ فما يزال به العذاب والألم حتى يستنقذه
منهما الموت ويريجّه من شرهما الفناء . وإذ ذاك يطمئن بعد القلق
ويسعد بعد التمس . وإذ ذاك يستحق أن تهنئته بما أفاد من
راحة وما انتهى إليه من سكون . هنئته بالراحة والسكون ، وهنئ

أوليائه بالغنى والثروة من تراث كسبوه ومال استولوا عليه . ما أجل
الموت ! فقد ضمن الخير للأموات والأحياء على السواء .
قضى الله أن الآدميَّ معذبٌ إلى أن يقول العالمون به قضى
فهنيءٌ ولالة الميِّتِ يوم رحيله أصابوا تراثاً واستراح الذى مضى

٣٢

آيتها المتهيئة للحج العازمة عليه ألقى عن مطيتك رحلها ،
وخفضني عنها ثقلها ، وأقيمى هادئةً مطمئنةً ، فما أحسب الحرج
عليك فرضاً ، وما أعدّه منك مطلوباً . أقيمى ! ما أرى لك أن
ترحلى إلى بلد جمع الله فيه أشرار الناس وأسكنه أوشابهم وأقلهم
عن الأعراض ذيادةً وللأحساب حمايةً . فسقةٌ لا يعرفون
العفة ، وأنذالٌ لا يستشعرون الغيرة . أقيمى ! إلى من تحجين !!
لقد قام بين يدي هذا البيت الحرام سدنته وحجّابهُ فجرةٌ
مستهترين ، سكارى ما يفيقون من السكر ، ولا يفرغون من
المجون ، لا يرعون لهذا البيت حقاً ولا يحتفظون له بذمة . وإنما
الطواف به والحج إليه تجارة لهم يربحون منها المال ويفيدون بها

القوت ؛ فما يبالون إذا ملأت أيديهم صحاحُ الدراهم وزوائفها أطوفوا بهذا البيت أهله أم أعداءه . دعى الحج وأمثاله من تلك الأعمال التي يدل ظاهرها على التمسك ، ويشهد باطنها بالتهتك . دعيها وافعل الخير خالصاً من كل رياء ، بريئاً من كل نفاق . دعيها وأجبي دعوة البر إذا دعاك سرّاً أو جهراً ، لا تمتطري على ذلك أجراً ولا تبتغي به ثواباً . أطعمى القانع والمعتّر وتعهدى البائس بالمعروف ، وخذي نفسك بمكارم الأخلاق ومحاسن الحلال ؛ فذلك أنفع لك وأجدى عليك مما لجج الناس فيه من باطل وزور .

أجل ! إنهم ليلجئون في باطل ، ويحرصون على زور . ولو قد كان منهم إصغاءٌ إلى نصيح ، أو إجابة إلى رشد ، أو انتفاعٌ بموعظة ، إذّا لرأيت كيف أزيل باطالهم عن الحق ، وأجلى غيهم عن الرشد ، وأمحي ضلالهم عن الهدى . ولكنّها قلوب عمياء ، وعقول ضعيفة ، لا يقومها رشد ، ولا ينفعها إصلاح .

ألا لا تتقي بما يدعون إليه ! فإنما هي خيل تجرى إلى الباطل ، وحلبة تستبق إلى الضلال ! لقد جرت في باطلها حينئذ ، واستبقت إلى ضلالها آنئذ ، ولا بد لجرائها من انقطاع

ولا استباقها من غاية ، ولقوتها من نفاذ . إنهم ليسـجـارون قضاء
الله ولكن هذا القضاء لا يجارى ، وإنهم ليبارون قدره ، ولكن
هذا القدر لا يبارى .

ألا أيها النجم الشارق والكوكب المتألى ! ألم يأن لك أن
تهدى إلى سواء السبيل أممًا جانرة قد خطأت القصد ولم توفق
للهدى ؛ فهي في تيه من البیداء عريض ، لا تعرف له وجهًا
ولا تنتهى منه إلى مدى ، قد بلغ منها الجهد وشف أينقها
الإعياء . لقد حرت في أمرها وفي أمر أينقها ، فما أدري أيهما
أهدى سبيلًا وأقوم طريقًا . النوق أم ركبـابها !! والإبل أم
أصحابها !!

قد غلبهم المضلون على أمرهم في الدين والدنيا ، وصرفوهم
عن رشدهم في كل شيء ؛ فهم مستذلون لدولة عزت عليهم
واستبدت بهم ، يصفونها بالعصمة وينعتونها بالطهر . وأقسم
ما هي بالمعصومة ولا الطاهرة ، وما هم عن ذلك بغافلين .

إنهم ليعلمون من هذه الدولة دخيلتها ، ومن أولئك القادة
خبثيتهم ، وإن نفوسهم لتتحدث بذلك وتطيل فيه ، ولكن
ألسنتهم عن النطق معقودة ، وأنواهم عن البوح به مكسومة .

وما عقد ألسنتهم ولا كتم أفواههم إلا خور العزم وضعف النفس
وكذب الأخلاق .

أقيمي لا أعد الحجاج فرضاً
ففي بطحاء مكة شر قوم
وإن رجال شعبة سادنيها
قيام يدفعون الوفد شفعمًا
إذا أخذوا الزوائف أوبلجوهم
متى آذاك خير فافعليه
فلوقبل الغواة عرفت كشفى
ولا تشفى بما صنعوا وصاغوا
جرت زمنًا وتسكن بعد حين
لعل قيران هذا النجم يثني
فقد أودى بهم سغب وظيم
وما أدري أمن فوق المهارى
أتتهم دولة قهرت وعزت
وظنوا الطهر متصلًا بقوم
وما كثر يت عيون الناس جمعًا
لهم كليم تخالف ما أجنوا

على عجز النساء ولا العذارى
وليسوا بالحماة ولا الغيارى
إذا راحت لكعبتها الجمارا
إلى البيت الحرام وهم سكارى
ولو كانوا اليهود أو النصارى
وقولى إن دعائك البير آرى
من الكذب المموه ما توارى
فقد جاءت خيولهم تبارى
وأقضية المهيم لا تجارى
إلى طرق الهدى أممًا حيارى
وأينقئهم بمتلقة حسارى
ألب إذا نظرت أم المهارى
فباتوا فى ضلالتها أسارى
وأقسم إنهم غير الطهارى
ولكن فى دجنيتها تكارى
صدورهم بصحته تمارى

أجب إلى تقوى الله والإذعان له ، لا تعدل به شيئاً ولا تجعل له ندّاً ؛ فكل ما سواه باطل لا نصيب له من الحق ، وذلك لا حظ له من الخلود . إنما أنجم العالم العلوى وإن عظمها الناس وماموا بها لعبة لا تلبث أن تتكشف عن خطل الذين فتنوا بها ورغبوا فيها . وإنما هذا العالم السفلى وما فيه من ألوان النبات على اختلافها ، وأنواع الحيوان على تباينها ، وأصناف الجماد على افتراقها ، صُرو ليس لها بقاء ، وظلال ليس لها ثبات . وإنما هذا الإنسان المذلّ بعقله التباه بشكله ، مثال لتلك الأجزاء الفانية التى ضمها التراب وواراها الثرى .

ألا فلتزهد فى الدنيا ، ولتصرف عنها أملاك ، ولتدارها كما يدارى الإنسان عدوا لا بد له من جيرته ، وخصما لا مندوحة له عن عشرته . لقد داريتها كل المدارة ، وزهدت فيها كل الزهد ، فما آبه لصروفها ، وما أحفل بخطوبها ، وما أعنيتى بلذاتها . لقد لا ينت أهلها كل الملاينة ، ورفقت بهم كل الرفق فما تزدهينى منهم صولة الصائل ، ولا جور الجائر . لقد نزلت

لهم عما يتنافسون فيه ويستبقون إليه من لذات الحياة ، فما أحتبس
 في بيتي حوراء ناعمة ولا حسناء فاتنة ، ولا أتخذ على مائدتي
 شهى الطعام ولذيذ المآكل ، إنما هي لقيمات تقيم الأود وتمسك
 الرmq إلى حين :

إذا قيل لك اخشِ الله	ه مولاك فقل آرى
كأنّ الأنجم السبع	ة في لعبة بُقَّارَى
خزائى وأقاحى	وصفراءُ وشُقَّارَى
ومن فوق الثرى يصغى	رُ في أجزاء من وارى
وأصبحت مع الدنيا	أداريها كمن داري
إذا بارأها قوم	فقلبي حبَّها بارى
وما يرهبنى جار	ي إن ناضل أو جارى
وما عرسى حوراء	ولا خبزي حوَّارى

جِدِّى أيتها الآمال في تضليل العقول وتسفيه الأحلام
 واجتهدى في التغرير بالناس منتهزة غفلة الحق عنهم وإبقاء الموت
 عليهم . اجتهدى في هذا وجِدِّى في ذاك ، فقد بلغت الأمر الذي

أردته ، وأدركت الغابة التي ابتغيتهما ، واستقاد لك الناس فسروا
 في ظلمة الباطل يترسمون خطوك ويتمننون نارك ، حتى إذا
 ما انمحت هذه الظلم وأدبر ذلك الليل وبدا صباح الحق أبلغ
 وضاحاً ، حميدوا السرى واطمأنوا إلى غاية ليس بينها وبين
 ما كانوا يؤملون إلا ما بين الموت والحياة من الاختلاف .

إيه يا بني آدم ! ما أطول آمالكم وأقصر آجالكم ! ما أشد
 طمعكم وأقل نجحتكم ! إنكم لتطلبون الثروة من نجوم السماء
 وغضون الأرض ، وإنكم لتسلكون إليها مختلف الطرق وتذهبون
 فيها شتى المذاهب ، ثم لا تؤوبون إلا باليأس والقنوط . قد كُفِّمَ
 من هذا الجهل فإنه ضائع . قَطِّكُمُ من هذا الجِد فإنه لغو .
 ذلكم زارع يقلب الأرض ليستخرج أثمارها . وهذا دارع يغير بقوته
 على الحصون والقلاع . والسعي من الرجلين ضائع ، والحظ الأعمى
 فيهما متحكم . فر بما عاد الدارع ذليلاً بعد العزة ، وآب الزارع
 فقيراً بعد الثروة . وحكم الحظ فأمضى . حكم لهذا حبات من
 الشعير يُقَمَّن أودّه ، ولذلك شدّرات من تبر الأرض وورقها
 يقضين حاجة ويفضلن عليه .

أشدُّد أيها الجاهد في طلب الثروة رحلاك على ما شئت من

عَنْس طويـلة المطا شديـدة القـوى ، أو ضَعُ سرجك على ما أحببت
 من طَرَف أيـد شديـد القـرا ، ثم اجهـد ناقـتك في الأسفار وفرسك
 في الإغارات وعد بهما كليتين قد أنصاهما الجـد وأكلهما الجـد
 وقد سال عليهما من عرقهما مثل الظلمة السحماء ، ورسم على
 جسميهما بـصاق الدبـي أمثال البـرا في الأنوف ، لاتستطيعان
 حركة ولا تعطيان نائلا ، قد ذهب الأين بجـدهما وجـدهما ، وقد
 ذهب بما فيك من قوة ، ومحا ما فيك من نشاط . افعل
 ما شئت من ذلك فلن تعود إلا بالحيية ، ولن ترجع إلا بالإخفاق .

لمن أنصح وبمن أهيب وعلى من ألوم !! لن ينفع النصـح
 ولن يجدى الزجر ولن يفيد اللوم ، غريزة في الناس ثابتة ،
 وطبيعة عليهم حاكمة . فـطـروا على حب الدنيا ، وورثوا عن
 آبائهم الغـلو فيه . لا تعذـل أخاك في هذا العشق ، ولا تلمه على
 هذا الحب ؛ فكلا كما فيه سواء ، ورثماه عن آبائكما وورثماه
 أبناءكما . إنما أنتما فيه أشبه بالذئاب خبثاً وسوء نية ، منكما
 بالأسود شجاعة وصدق إقدام . والدنيا خادعة ماكرة ، ومحتملة
 ماهرة ، تدبّ دبيب الشيخ وتدرج دروج الطفل حـدرة
 مستأنية ، حتى إذا لمحت مطمعاً أو توسمت فريسة ، فدع

مهارة السلايك وتفوق الشَّنْفَرَى في الكرّ والفر ، وفي الاختلاس والنسدل ، وفي سوء الخلق وفساد الضمير .

لقد علّمتكم فأحسنّت تعليمكم وغذّتكم فأحسنّت غذاءكم ؛ فليس فيكم من هو من الشرّبري ، ومن دنس الرذيلة نقي ، سواء في الشر والرذيلة أهل السهل والجبل ، وسكان الوهاد والذرا ، لا يردّهم عنه رادّ ، ولا يردّهم عنه رادع .

ألا لو أنصف الحكيم نفسه لطلب الصمت وسكن إليه ، ولا فتن فيه افتتان الجاهل المغرور في النطق بما في الحياة من زخرف وما في العالم من أسماء .

إليه أيتها العقول الضالة ! ضعى ما شئت من الأسماء ، فلن تجدى عليك شيئاً ، سمو الحمر أم ليلى ، وسموا مكة أم القرى ، فما أنتم في ذلك إلا كاذبون . ما أرى الحمر ولدت ليلى ، وما أعرف مكة ولدت القرى ! سمو هذا النجم الطالع في السماء بالمشترى فما أنتم في ذلك إلا مختلفون ! فهل تنبئوني ماذا اشترى هذا النجم وماذا باع ! . كلا ! إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ، لا تعلمون لها مصدراً ولا تريدون بها غاية .

انتظروا الربح فلن تربحوا إلا الخسران . وأمّلوا الظفر فلن

تظفروا إلا بالحيبة . انخدعوا بالأسماء فإن ضعف عقولكم لم
يُعد دُكم إلا لذلك ولم يهينكم إلا له .

عذيري من هذا المارد الغالى فى مروده ، وانماجر المغرب فى
فجوره ، يتمرأ ويدعى النسك ، ويتزهد وينتحل الدين ، وما
أراه إلا متبعاً للمخزيات ، متطلباً للآثام ، مستبطناً للكفر والنفاق .

ألا أيها الحكيم الحازم اربأ بنفسك أن تحب هذه الحياة فما
فيها خير ، أو تحرص على عشرة أهلها فما يرجى لهم صلاح .
هون على نفسك لقاء الموت ، فإن خشونته وغلظته ألين مساً من
نعومة الحياة ورقتها . وطنها عليه وهيئها له ؛ فإنما أنت سالك
سبيل أمثالك الذين مضوا ؛ وتابع نهج أقرانك الذين درجوا . كم
خبرك التاريخ عن قيسل دانت له العروش وانقادت له المنابر ، ثم
أسلمته عزته وقوته إلى التراب فخالطه وفى فيه ! مضى لم ينفعه
ملكه ، ولم يتبعه سلطاته ، بل أقام فى ظلمة قبره عارياً من
كل شيء ، أعزل من كل سلاح ، وخلف دولته الضخمة
وعزته القعساء بالعراء .

ارغب فى الموت وابتدره بفعل الخير ، وليكن حظك من
هذه الحياة الإحسان إلى أهلها والتطول عليهم ، إقر ضيفهم إن

نزل بك . إقره بأول ما تلقاه ، لا تتربص به ما ليس عندك ، ولا تكبره على ما في يدك . لا تزدر شيئاً من القوت ؛ فربّ مزدريّ نفع ، ورب محقر أفاد . إن في هذا القوت الذي تمقته وتُصغره أن تقدمه إلى ضيفك لبلاغاً لهذا الضيف من جوع ربما مزق أحشائه ، وتعليةً له عن ألم ربما لم يطق له حملاً ، وأين تقع العرا والأزرار مما أوتيت البُزْلُ من قوة وما منحت من أيدٍ ! ولكنها مع ذلك محتاجة إليها لا تستطيع أن تُقِلَّ حملاً ولا أن ترفع ثِقلاً إلا بها . وليس يحقر الشيء لضعة مكانه ولا يعظم لارتفاع قدره ، ينبغي أن يقدر ذلك بمكانة من حاجة الناس إليه ، وتوقف مصالحهم عليه .

أجل ! لقد بالغنا في حب الدنيا وإكبارها حتى أطمعناها في أنفسنا ، فشررتنا محترقة لنا ، ونظرتنا زارية علينا ، وهي أحق أن تحقر وأجدر أن تزدرى ؛ فليس فيها شيء يحسن بالعاقل حرص عليه ورغبة فيه . لذاتها نائية ، وآلامها دانية ، خيرها قليل وشرّها كثير ، والسعادة فيها غير باقية ، والشقاء بها لا يزول . أوليس أجمل الأشياء فيها عصر الشباب الذي يحمل إلينا من اللذات ألواناً ومن النعمة فنوناً ! فكيف ترى ثباته لنضالها وبقائه أمام نبالها ! أو ليست تتخذة غرضاً فلا تزال بحمدته

حتى تبتلى ، وبنصرته حتى تذوى ، وبجماله حتى يزول ! .

نحب الحياة ونكره الموت ، وما أعرف لشيء من ذلك سبباً
لقد عرفنا شر الحياة وضررها ، وأرى أنا لا نكره الموت إلا لجهلنا
إياه وغفلتنا عنه ، وأننا لم نذق طعمه ولم نبلى ثمره ! بلى ! لقد
ذقناه فما ألدّه ! وبلوناه ، فما أحلى جناّه ! وأى فرق بين الموت
والنوم إلا قصر هذا وطول ذاك ! وأى خلاف بين رقدة القبر
ورقدة السرير ، إلا أن هذه راحة مؤقتة تنسخها آلام اليقظة ،
وتلك راحة خالدة لا ينسخها شقاء الحياة .

ألا إلى الله الملجأ وعليه المعتمد ؛ فإننا لم نُجمعَ في هذه الدار
ولم نحشرْ إلى هذه الأرض إلا لنشرب كأس الموت كدرة أو
صافية لا بد منها ولا منصرف عنها . نشربها راغمين فنجد لها
مذاقاً واحداً لا يغيره اختلاف المادة ولا يبدل له تبدل الأجزاء :
فلان قتله المرض ، وفلان قتله السيف ، وفلان أصابه الرمح ،
وآخر أصابه الهم ؛ كلٌّ قد انتهت به الحياة إلى مورد واحد
لا اختلاف له ولا تفاضل فيه .

نشربها راغمين وإن لم نحمد أثرها . فناء تام ، وسكون

خالد ، وذهول عن العالم مقيم . رِدْ حوض الموت مطمئناً ،
واحتس كأسه مستريحاً ؛ فلن يؤمك بعد ذلك ذم الناس لك ،
ولن يرضيك ثناؤهم عليك . وأنى لهم أن يؤموك أو يرضوك وقد
فصمت بينك وبينهم العرا . وتقطعت بينك وبينهم الأسباب !

أقدم ، ولا يهولنك ما تسمع من أخبار الغيب وأنبائه ! فإنما
هى ظنون مرجمة ، وأحاديث منحولة ، لم تنتقل إليك عن ثقة ،
ولم تبلغك عن يقين . هل أنباءك ميتٌ بما بعد الموت ؟ وهل قص
عليك ما لقي في قبره من سعادة أو شقاء ومن نعيم أو جحيم ؟ !
كلا ! لو أنه قام من جدته وهب من مرقده فلأنبأنا بما رأى
وحدثنا بما سمع ، لاختلف ظن الناس به ورأيهم فيه ، ولكان
منهم المصدق له والناعى عليه . طبيعة تلك فى الناس لا تزول ،
يؤثرون الباطل فيجمعون عليه ، ويحقرون الحق فيختلفون فيه .

أجل ! إنا لم نجمع إلا لنرد هذا المورد ، كما أن راعى الإبل
لم يوردها الحوض ولم يعرضها عليه إلا لتشرب منه وترتوى من مائه .

أقدم على الموت ، فليس لك عنه مفر ولا منه معتصم . وأنى
لهذا الفرأفتى قد اشتد به المرح وعظم فيه الحرص على الحياة ،
أن ينجو من سهم أرسله إليه وأتاحه له القضاء !

لا تتخذ عنك الآمال ، ولا تغرنك المنى ، ولا يملكك حب الحياة ؛ فإنما هي آمال منقطعة بك ، وأمانى مُسَلِّمةٌ لك إلى الحمام . وأنى يُستاح للشور الهرم قد أفنته السن وتصرمت عنه الأيام ، أن يعيش عيشة الفترأ النشيط ذى الشباب والقوة وذى الحدة والفتوة !

ما أكثر تعرض عقل الإنسان للزلل ، واستهداف رأيه للخطل ! فقد يخدعه السراب ، فيخيّل إليه الشراب ، وقد يسحره قطر السحاب ، فيخيّل إليه الدرّ ذا البريق والصفاء وذا الرونق والألاء . كذلك يفعل الضعف بنفس الإنسان ، يسقيها المنى عذبة ، ويريهما الآمال محققة ، حتى إذا جاء وقت اليقظة والانتباه والحرص على اجتناء الأثمار لكد الليل وكدح النهار ، لم يظفر إلا بألم اليأس ، ولم ينل إلا مرارة القنوط .

كم تمتلئ نفسك ابتهاجاً ! وكم يفعم قلبك سروراً حين تصوغ لك الآمال طيف الخيال ، وفيه من حبيبته ما أحببت من دل فائن ، وجمال ساحر ، ومن لطف خلّاب ، وحسن جذاب ! وكم يؤلمك وخز اليأس حين تباعد اليقظة بينك وبين هذا الخيال ؛ فما تفيق من نومك إلا وقد استيقنت بأنك قد كنت فى باطل ليس له من الحق نصيب ! ذلك هو نصيبك من الدنيا ؛

فإن شئت فازهد فيه ، وإن شئت فاحرص عليه . ولكنى أنصح لك ألا تتخذ سبيل الجاهل الذى لا يفرق بين نفعه وضره ، ولا يميز خيره من شره . ذلك الذى يصرف سيفه عن عدوه ليُغمده فى رأس أحب الناس إليه وأولاهم بالمنزلة عنده ، وهى ابنته التى هى جزء من نفسه وقطعة من قلبه . هذا الجاهل الغافل يغتر بالحياة فيرغب فيها ، ويعتقد أن حرصه عليها سيعصمه من فراقها وإنما هو فى رأيه مضلل مغرور .

ما أشدّ ما أشهد بين الناس من الاختلاف فى طرق الحياة . والافتراق فى سبل العيش ! هذا يبيع ، وهذا يشتري ، وتلك تغنى وهذه تنوح ، وذاك يهوى إلى أعماق الأرض ليحتج الماء من جوف القليب ، وصاحبه يصعد فى أجواز الجوال يشتر العسل من رعوس الجبال أشد ما يكون على نفسه حذراً من السقوط ، وأحرص ما يكون لها رغبة فى النجاح . والكل ينتهون من مساعيهم المختلفة ومسالكهم المتشعبة إلى غاية واحدة ، هى الموت الذى لا منصرف عنه ولا شك فيه .

ألا إننا زائلون كما زال من قبلنا ، فمَقْتُون على آثارهم وموروثون الأرض لمن بعدنا .

والزمان على حاله : نهاري يمر بضوئه ، وليل يكرّ بظلمته ، ونجم
يطلع ، وآخر يهوى مغوّراً . بذلك سبق القدر ، وعلى هذا استقر القضاء .

سرّينا وطالبنا هاجع
بنو آدم يطلبون الثرا
فتسى زارع^١ وفقى دارع^٢
فهذا بعين وزاي يروح
وعامل قوت ذرا^٣ حبه
وكورك فوق طويل المطا
ويجري ذفاري^٤ بها جيدها
كان بصاق^٥ الدبسى فوقها
وذلك من حر^٦ أنفاسها
تلوم على أم^٧ دفر أخاك
عهدتلك تشبه سيد الضراء
تدب^٨ فإن وجدت خلسة^٩
هو الشر قد عم^{١٠} في العالمين
ليفتن^{١١} في صمته ناسك^{١٢}
فكنوا صبوحيّة الشرب أم^{١٣}

وعند الصباح حمدنا السرى
ع^{١٤} عند الثريا وعند الثرى
كلا الرجلين غدا فامترى
وذلك يؤوب بضاد ورا
وخدن^{١٥} ركاز ضحا فاذرى
وسر^{١٦} جلك فوق شديد القرا
بمثل الظلام إذا ما جرى
إذا وقدت في الأنوف البرا
يضاعفه حر يوم جرى
وراءك إن^{١٧} هوّى قد ورى
ولست مشابه^{١٨} ليث الشرى
فيا للسليك أو الشنفرى
أهل الوهود وأهل الذرا
إذا افتن^{١٩} فيما يقول الورى
ليلى ومكة أم^{٢٠} القرى

فيا ليت شعري ماذا اشترى
 ونعتك في نفسك الخيسرى
 تتقرباً والمحزيات اقترى
 وقل حين تطرق أطرق كراً
 فصبراً على الحكم لما اعتري
 وتذرى النوائب سكن الذرى
 فعاد إلى عنصر في الثرى
 وخلف مملكة بالعرأ
 وقرب إليه وشيك القرى
 فكم نفع الهين المزدرى
 ق إلا بأزارها والعرأ
 سواها التي مشت الخيزرى
 أو أن شبيبتنا فانسرا
 وموتى نوم طويل الكرى
 صرينا لنشرب ذاك الصرى
 من شاد مكرمتى أوزرى
 وأودى فلان بعرق ضرا
 ح بين أسننتها والسرأ

وقالوا بدا المشتري في الظلام
 وترجو الرباح وأين الرباح
 عذيري من مارد فاجر
 فهو ن عليك لقاء المنون
 وناد إذا أوعدتك اعترى
 ونفسي ترجى كإحدى النفوس
 وكم نزل القيل عن منبر
 وأخرج عن ملكه عارياً
 إذا الضيف جاءك فابسم له
 ولا تحقر المزدرى في العيون
 ولا تحمل البزل تلك الوسو
 أجل خزرتني وثابة
 فإن سراء الليالى رمى
 ونومى موت قريب النشور
 نؤمل خالقنا إننا
 سواء على إذا ما هلكت
 فأودى فلان بسقم أضر
 أبا النبل أدرك أم بالرمأ

فهل قام من جدّث ميت^١
 ولو هبّ صدّقه معشر^٢
 ولم يقرّ في الحوض راعى السوا
 أفرّ وما فرأ^٣ نافر^٤
 أحسنّ إلى أمل فاتني
 متى قرقر الهاتف العكرى^٥
 وقد يفسد الفكر في حالة
 سقاك المنى فتمنيتهما
 فلا تدن من جاهل^٦ أهل
 أبى سيفه قتل أعدائه
 وتختلف الإنس في شأنها
 مغنية^٧ أعطيت مرغبا^٨
 وهاو ليخرج ماء القلب
 فإن نال شهدا فأيسر^٩ به
 نزول كما زال أجدادنا
 نهار يضيء^{١٠} وليل يجرى^{١١}

فيخبّر عن مسمع أو مرأ^{١٢}
 وقال أناس طغى وافترى
 م إلا ليورده ما قرى
 بمعتصم من قضاء فرى
 وما للشبّوب وعيش الفراء
 هيح شوقاً إلى قرقرى
 فيوهلك الدّر قطر السرا
 وصاغ لك الطيف حتى انبرى
 لو انتزعت خمسه ما درى
 وساف وليدته أو هرى
 وأبعد^{١٣} بمن باع من شرى
 فغنت^{١٤} ونائحة^{١٥} تسكت^{١٦} رى
 وراق ليجنى ثولاً أرى
 على أنه بسقوط حرى
 ويبقى الزمان على ما ترى
 ونجم^{١٧} يغور ونجم^{١٨} يرى

حياة تعني لنا آلامها ، وموت يعذبنا خوفه . فليت ما يؤذينا
مضى ، وليت ما يخيفنا وقع !

ماذا أحمد من الحياة ! وإنما هي أمل يشمر اليأس ، ورجاء
يغلّ التئوط . نفس متمنية للسعادة ، وعين رانية إلى النعيم ،
ويد قد أصفرها الفقر وأخلاها الشقاء ، ولهاة قد أجفها الظمأ
وأذواها الصدى .

لشد ما أشهد في هذه الحياة من تلون ! ولشد ما أرى فيها
من خداع . أناس يحبون الخير ويرغبون فيه ، فإذا حققت
أمورهم وتبينت أسرارهم ، رأيت أن حبهم للخير وحرصهم عليه
ليس إلا تجارة كاسدة يبتغون بها الذكر الطائر والشهرة الكاذبة
والصيت البعيد . أوقد أيها الموقد نيرانك في جوف الليل ، وارفع
سناها على رعوس الجبال وشعافها ، فقد علمت أنك لم ترد
بذلك وجه الله ولا فعل الخير ، وإنما أحببت أن يشيع حمد
الناس لك وثناؤهم عليك .

حقق أيها الباحث نظرك في الأمور ، وأجيد بحثك عنها
واستقصاءك لها ، تجد أن غاية ما ينال المرء من حياته إنما هو

ثوب يستر جسمه ، وقوت يقيم أوده ، وراحة تدفع عنه الأسقام
والأمراض . لقد كثر الثمن وخسرت الصفقة ، وبذلنا هذا
الجهد العظيم ثمناً لهذا الحظ القليل من الحياة .

ما أجمل الموت وما أئذه ! وما أكفله للراحة وأنقاها للتعب !
يسكن أحدنا القبر فلا يحفل بما أقاد من ثروة وما اقتنى من
طرائف . يعود تراباً لا يلدّ له مس الحرير ولا يؤذيه طعن القنا ،
ولا يؤلمه ما نال من موت زعاف قد حمّله إليه صارم صافي الفزند
ماضى الحد مرّ المذاق . لا يزدنيه الغضب ولا تأخذه العزة إن
ذمه الناس ومدحوه ، سواء عليه سبي ذلك وحسنه وقبيحه وجيّدته .
ألا من كانت قد أعجبت به الحياة فإني قد أعجبتني الموت !
ألا إن من نال الخير خليك أن يهنأ به ويغبط عليه ، ولكني
لا أرى الحياة خيراً ولا أعتدّها نعمة .

لقد كثرت مذاهب الناس في مصدر ما اشتملت عليه الحياة
من شر : فمنهم من حمد المادة وأنكر الروح ، ومنهم من ذم المادة
وجعلها مصدر الشر ووروعة الآثام ، وزعم الروح بريئاً من كل
عيب خالصاً من كل سوء ، والجسم مصدر آلامه وعلة شقائه .
وما أرى هذه الطائفة من الناس إلا غالية مغرقة . ماذا فعل الجسم

المسكين ؟ وماذا جنى ؟ ! لقد كلفه الروح مشاق الأعمال وأنواع الآلام فاحتملها طائعاً وقام بها مدعناً حتى أدركه البلى وأصابه الفناء . أجل ! لقد كلفه الروح من أعاجيبه ما يفوق الطاقة ويتجاوز الحد ، فما عصى أمراً ولا استهان بنداء . أفإن أبلته الخدمة وأفنته الطاعة يكن نصيبه الدم والعيب ؟ !

لقد أخطئوا في ذمهم للجسم وكذبوا في عيبهم عليه ! فما رأينا الجسم في نفسه إلا مصدراً للخير وسبباً للنعمة . وما رأينا الشر والشقاء والغنى والفساد إلا تابعة للحياة يصحبها الروح . دونك الغصن الذى هو جسم صرف ليس له من العقل والروح نصيب ، ودونك الإنسان العاقل المفكر ، فانظر أيهما إلى الخير أدنى وإلى الفائدة أقرب ، تجد الغصن قد أعطى النعيم واللذة وأجنى الفواكه والأثمار ، والإنسان قد أوجد الجحيم والشقاء وجنى الآثام والشرور .

لقد برئ الجسم الخالص من المين والتكلف ومن الكذب والزور ، فما تبرأ مما هو فيه ، ولا حرص على الرجوع إلى ما فاتته ولا ذاق كذب الآمال ولا جرب ضلال المنى . انظر إلى الإنسان ذى العقل والفكر كيف ضلّ عقله وصغر فكره ! فكّر في الشيب وقد أصابه ، وأحب الشباب وقد فاتته ، فظن أن الخضاب

يدفع عنه ما أتى ، ويرد عليه ما فات ، ونسى أن تغير اللون واستحالته
لا يدفعان عنه ما دهمه الشيب به من انحناء الظهر وانثناء المتن .

انظر إليه كيف خدعته الأوضاع المختلفة والأصول المنتحلة
فحكمها في نفسه وسلطها على عمله ، مع أنه هو الذي اخترعها
ولم تكن موجودة ، وانتحلها ولم تكن معروفة ، واتخذ منها لنفسه
قيوداً وأغلالاً تعوقه عن الخير ، وتثنيه عن الكمال . جعل في الناس
أحراراً وعبيداً ، وفرّق بين ابن الحرّة وابن الأمة في الحكم وباعد
بينهما في نظر العقل . وما أرى بينهما فرقاً ، كلاهما إنسان يأكل
الطعام ويمشي في الأسواق . فرّق بين المحصنة والزانية ، وأخذ
أبنيهما بحكمهما ، فأخذ ابن الزانية بجناية أمه ، وربما كان خيرّاً
فاضلاً . ومدح ابن المحصنة بطهارة أمه ، وربما كان شريراً آثماً
ما أضلّ عقله وأسفه رأيه وأجدره أن يتخلص من هذه الأغلال !

انظر إليه بطراً أشراً يحب الحياة ويرغب فيها ، حتى إذا
طالت له أنفقتها في الزور والحنأ ، وأمضاها في الإثم والفجور .
انظر إليه كيف نسي نصيبه من الموت حين حجب عنه وخفى عليه ،
فطن أنه خالد لن يموت وأنه لا يفنى ، حتى إذا ظهر خطؤه وبان
خطله تقطّع قلبه حزناً لفراق الحياة ، وتفرّقت نفسه فزعماً من

لقاء الموت . ولو قد كان متبصراً في الأمور مستقصياً لعواقبها
لكان بنجوة من هذا الفزع وذلك الحزن . انظر إليه كيف
أصم أذنيه عن هذا الصوت المُرِن ، وكيف أعمى عينيه عما
يقدم الدهر إليه من آيات بينة وحجج ناصعة ، تظهر له غروره
واضحاً ، وفنونه جلياً .

انظر إليه كيف خدعته أوهام الأقدمين وأصلته أساطير
الأولين ، واتخذ لنفسه شرائع مكتوبة وطقوساً من العبادة ظاهرة ،
يزعم أنها تدخله الجنة وتعصمه من النار . لقد فزت أيها
الشيقي التعس ، إن صدقتك هذه الأوهام وصححت لك هذه الوعود .
فزت بالجنة ونعيمها ، وبرئت من النار وجحيمها ، بزيارتك لتلك
الأحجار القائمة والأبنية الماثلة بمكة ومينى .

فليت بعيدَ حِمَامِ دَنَا	حياةٌ عناءٌ وموتٌ عَنَاءُ
ونفسٍ تَمَنَّتْ وَطَرْفُ رَنَا	يدٌ صَفَرَتْ وَلِهَاءُ ذَوْتُ
يروم سناءً برفع السَّيْنِ	وموقدٌ نيرانه في الدجَى
وملأ الحميص وبرء الضنى	يحاول من عاش سَتَرَ القميصِ
على ما أفاد ولا ما اقتنى	ومن ضممه جدثٌ لم يسبَلْ
مسُ الحريروطن القنا	يصير تراباً سواءٌ عليه

وشربُ الفناء بخُضر الفردند
 ولا يزدهى غضبُ حلمه
 يهنأ بالخير من ناله
 واقرب لمن كان في غبطة
 أعائبة جسدی روحه
 وقد كلفته أعاجيبها
 ينافي ابن آدم حال الغصون
 تغير حناؤه شيبه
 إذا هو لم یُخن دهره عليه
 وسیان من أمه حرة
 ولی مورد باناء المنون
 زمان یخاطب أبناءه
 یبدل بالیسر إعدامه
 لقد فزت إن كنت تعطي الحنا

كأن على آسهن الفنا
 ألقيته ذاكر أم كنا
 وليس الهناء على ما هـنا
 بلقيتاً المني من لقاء الهـنا
 وما زال یخدم حتی وني
 فطوراً فرادی وطوراً ثنا
 فهاتيك أجنت وهذا جني
 فهل غير الظهر لما انحنى
 جاء الفري وقال الحنا
 حصان ومن أمه فرتني
 ولكن ميقاته ما أني
 جهاراً وقد جهلوا ما عني
 وتهدم أحداثه ما بني
 ن بمكة إذ زرتها أو مني

بعلم الله وقضائه خلقت والضعف لي طبيعة والعجز في
 غريزة، لا أستطيع غدوً أو لارواحاً، ولا أقدر على سرى ولا إدلاج.

لقد أصبحت في يده أسيراً يائساً وذليلاً ضارعاً ، أخرج
ما أكون إلى فضل من عفوه ، ونافلة من كرمه .

وليس يصح في قضية العقل أن أقضي أيامي في هذه الحياة
موثقاً مكتوفاً ، لا أملك لنفسي نفعاً ولا أدفع عنها ضراً ، ثم
أكلف العمل في الطاعة والجد في العبادة ، حتى إذا لم أت
ما أنا عاجز عنه قيل لتدخل النار كما دخل غيرك من العصاة
المفسدين والطغاة المجرمين ، وإن بيني وبينهم لفرق ما بين
العاجز والقادر أو القوي والضعيف .

لئن زعم الناس أن لهم قوة وقدرة ، وأن لهم بأساً وبطشاً ،
وأنهم قادرون على ما كلفوا ، ما لكون لما ندبوا إليه ، ما أعرف
إلا أني عاجز ضعيف ، قد برئت من الحول والطول ، وعجزت
عن الدقيق والخليل . ولئن وقف الناس أنفسهم موقف اليأس
والقنوط ، فاستيقنوا بسوء العاقبة حين اعتقدوا في أنفسهم القوة ،
إني لكبير الأمل عظيم الرجاء ، أنتظر أن ينالني عفو الله عن
ضعيف عاجز فيأمرني إلى جنته حيث ينعم الأبرار من أصفياؤه .
ذلك رجاء أرجوه وأمنية أبتغيها . وما أراني إن ظفرت بها إلا
الموفق السعيد .

بعلم إلهي يوجد الضَّعْفُ شِيمَتِي
 غَبِرْتُ أُسِيرَافِي يَدِيهِ وَمَنْ يَكُنْ
 أَوْ صَبَحَ فِي الدُّنْيَا كَمَا هُوَ عَالَمٌ
 وَإِنِّي لِأَرْجُو مِنْهُ يَوْمَ تَجَاوَزُ
 إِذَا رَأَى كَبُّنَا لَتَ بِهِ الشَّأْوُ وَنَاقَةُ
 وَإِنْ أَعْفَ بَعْدَ الْمَوْتِ مِمَّا يَرِي بَنِي
 فَلَسْتُ مَطِيقًا لِلْغَدْوِ وَلَا الْمَسْرِ
 لَهُ كَرَمٌ تُكْرَمُ بِسَاحَتِهِ الْأَسْرَى
 وَأَدْخَلَ نَارًا مِثْلَ قَيْصَرٍ أَوْ كَسْرَى
 فَيَأْمُرُنِي ذَاتَ الْيَمِينِ إِلَى الْيُسْرَى
 فَمَا أَيْنُتَقَى إِلَّا الظُّوَالِعُ وَالْحَسَرَى
 فَمَا حَظِي الْأَدْنَى وَلَا يَدِي الْخَسْرَى

٣٧

لَا تَحْقِرِ الْمَوْتَ وَلَا تَزْهَدْ فِيهِ ، وَلَكِنْ أَكْبِرْهُ وَاسِعَ إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ
 خَلِيقٌ أَنْ يَكُونَ مَطْمَعًا لِلنَّفْسِ الْكَبِيرَةِ وَالْقَلْبِ الْمَطْمَئِنِّ . وَأَيُّ
 دَلِيلٍ عَلَى شَرْفِهِ وَفَضْلِهِ أَوْضَحَ مِنْ صَعُوبَةِ الطَّرِيقِ إِلَيْهِ ! فَإِنَّا إِنَّمَا
 نَسْلُكُ إِلَيْهِ هَذِهِ الْحَيَاةَ مُحْتَمِلِينَ أَهْوَالَهَا مُتَجَشِّمِينَ خَطُوبَهَا
 مُتَجَرِّعِينَ غَصَصِهَا ، ابْتِغَاءَ رَاحَتِهِ الدَّائِمَةِ وَدَعْتِهِ الْخَالِدَةِ ، فَهُوَ
 كَالْمَجْدِ الْمُؤَثَّلِ لَا يَنَالُ إِلَّا بِالْجُهْدِ وَالْمَشَقَّةِ .

أَجَلٌ ! إِنْ الْمَوْتَ لِرَاحَةٍ ، وَإِنْ الْحَيَاةَ لَتَعَبٍ ، وَإِنْ فِي
 افْتِرَاقِ الْأَجْزَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ لَتَخَفَفٍ مِنْ ثِقَلٍ شَدِيدٍ ، كَمَا أَنَّ فِي
 التَّثَامِهَا بِالْحَيَاةِ تَحْمَلًا لَعَبٍّ عَظِيمٍ .

انظر إلى الراعى المكدود ، ما ينفكّ عاملاً مجتهداً في حياته ، حتى إذا مات سكنت حركته واطمأن جسمه وارتاح بعد العناء . وما أحسبه لو خيّر بين الموت والحياة وقد ذاق أولهما إلا مؤثراً للحمام ومختاراً للفناء .

يدلّ على فضل المماتِ وكونه	إراحة جسم أنّ مسلكه صعب
ألم تر أن المجد تلقاك دونه	شدائد من أمثاله واجب الرعب
إذا افترقت أجزاءنا حطّ ثقلنا	ونحمل عبئاً حين ياتمّ الشعب
وأمسِ ثوى راعيك وهو مودّع	ولو كان حياً قام في يده قعب

٣٨

فيم تعيب الناس وتتبعُ زلاتهم ! وعلامَ تؤنب الصديق وتكثر الإساءة إليه ! وماذا جنى عليك الدهر فأنكرته ، أو قدّمت لك الأيام من الشر فأنت لها كاره وعليها عاتب ! لقد كنت خليقاً أن تشغل بما أصبحت منتظراً له من موت واقع ، ليس له من دافع ، عن تتبع العيوب وتأنيب الأصدقاء . ولقد كنت حجيّاً أن تعرف نفسك وتعترف بسيئاتها ، لأنّ تجهلها

وتحمل جنایاتها على الزمان وآثامها على الأيام ! ما أذنب الدهر
ولا جنت الأيام ، وإنما نحن المذنبون الجانون .

انظر إلى هذا الظالم قد غرّه سلطانه وأطغاه بطشه . فظن
بنفسه الخلود واستبعد عليها الموت ، وإن الموت لمدرکه أين كان
ولواتخذ نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء . أحبّ الظلم ورغب
فيه ، وطلب العسف وتهالك عليه ، فما ينفك فيه جاداً وعليه
حريصاً . لقد بدل برقة العواطف قسوة القلب وغلظة الكبد
وجفاء الطبع ، حتى استبدل بما يعشقه الناس من الغواني الحسان
أدوات الموت وآلات الفناء . إنه ليرى في القناة اللدنة السمرء وفي
سنانها المخضوب بالدماء ، حسناء فاتنة يضم إليه قدھا المياس
ويلثم ثغرها الشنّيب . وإنه ليرى في السيف قد صفار ونقه وخلص
جوهره وتلاً لأ الفرند فيه جدولاً من الماء نقي الصفحة ، ولكنه
ينم عن صورة الموت ، فلا يكاد يصبّ منه على رأس القـرّ
قطرات حتى ينبسط منه جدول من الدم المزبد العبيط . إنه
ليهوى الحرب ويكلف بها ويرأها هندة وزينبه . وإنه
ليقطع إليها المهامه ويتجشم البید ويمتطى الأيـد من الخيل
والنوق ، والناس من حوله وادعون مطمئنون . إنه ليفعل ذلك كله
فيزعج الآمن ويروع المطمئن ويملاً الأرض شراً وإثماً ، ثم أنتم

بعد ذلك تصبّون الأيام وصمته ، وتحملون عليها وزره وتسبونها
 بما كان خليقاً أن يسب هو به ، أصلحوا أنفسكم فقد فسدت ،
 وبصروا ظالمكم فقد أعماه الغرور ، أرشدوه إلى أنه يمد إلى الحياة
 أسباباً سيقطعها الموت ، وأن ما يدّخر من الورق والنضار ، وما
 يحتمل في سبيله من الأهوال والأخطار ، وما يقتنى من دُهم
 الحيل وغرّها ، ومن قوارح الإبل وبزلها ، لن تدفع عنه غارة
 الأيام ، ولن تردّ عنه صولة الزمان ، لقد عجزت أن تقيم قدّه
 المنحني وعوده المُنَاد ، وإنها عن دفع لموت لأضيق باعماً ،
 وأقصر ذراعاً .

عن العيب يبدو والخليل يؤنب	ليشغلكَ ما أصبحت مرتقباً له
ولكن بنوا حواء جاروا وأذنبوا	فما أذنب الدهرُ الذي أنت لائمٌ
ولو أنه عند السماء مطنّبٌ	سيدخل بيت الظالم الختفها جماً
فدات لى والحرص كالناب أشنب	وقد كان يهوى الطعن أما قنائه
من الودواسم الحرب هندوزينب	ودرع حديد عنده درع كاعب
إذا العبس تزجى والسوابق تجنب	ويطوى الملا بعد الملا فوق كوره
على رأس قرن جاش بالدم مذنب	له من فيرنجد جدولٌ إن أساله
قوام ردّ ينّى وطيرفٌ مخنّب	وليس يقيم الظاهر حنّبه الردى

لقد أكثرَ لوم الدنيا وأطلت النعمى عليها ، وزعمت أنها لك ظالمة ، وعليك جائزة ، وإليك مسيئة . وما أرى أنها قد اقترفت ذنباً أو اجتاحت إثمًا . وما أعرف أنها ظلمتك أو أساءت إليك ، وإنما أنت الظالم لنفسك المسىء إليها . توردها موارد الشر ، وتحملها محامل السوء ، ثم تكلف الأيام ما كنت خليقاً أن تكلفه نفسك ، وتعيبها بما أنت فيه واقع . يلد لك أن تتكذب عليها وتصفها بما هي بريئة منه . ماذا جنت عليك الدنيا وبماذا أساءت إليك ! كل ذنبها عندك أنها حسناء فتانة وهيفاء خلابة ، يستبيلك حسننها ويستصيبك جمالها ، فأى ذنب لها في هذا الحسن ! وأى جناية لها في كلفك بها وميلك إليها ؟ !

عذيرى من أولئك الخداعين للناس المضلين للعقول المتكذبين على الأغرار ! لقد زعموا لهم أن نفوسهم خالدة ، وأنها لم تهبط هذا العالم إلا لتبتلى وتجرب ، متنقلة فيه من جسم إلى جسم ، مستفيدة من هذا التنقل صلاحاً وتهذيباً لأخلاقها ، وأن السعيد من هذه الأنفس سيلقى من النعمة واللذة ما لا سبيل إلى وصفه ،

وأن الشقى منها سيلقى من الألم والنقمة ما يطهره من أدناس المادة وأدرانها . كلا ! ما أحسب أن هذا حق ، وما أرى أنه صواب ، وما أعرف أننا نقضى أيامنا مختارين أحراراً نستطيع أن نصلح نفوسنا ونهذبها ونسلك بها إلى السعادة طريقتاً مأموناً ، إنما نحن عبيد مقهورون ، قد أوثقت أيدينا وأرجلنا بأغلال متينة وأمراس محكمة ، فنحن نرسف فيها مجذوبين إلى ما لا نحب ، مكرهين على ما لا نرضى .

ليس فى هذه الحياة لنا خير ولا سعادة ، إنما هى الشر الدائم والشقاء المقيم . وأقسم لو أن للحس فى ميت بقاءً وللشعور فيه وجوداً ، لقد كنا أحرىء أن نجد لطعم الموت من العذوبة وملاءمة الطبع ما لا نجده فى الحياة .

نَقِمْتَ عَلَى الدُّنْيَا وَلَا ذَنْبَ أَسْلَفْتُ	إِلَيْكَ فَأَنْتَ الظَّالِمُ الْمُتَكَذِّبُ
وَهَبْهَا فَتَاةً هَلْ عَلَيْهَا جِنَايَةٌ	بِمَنْ هُوَ صَبُّ فِي هَوَاهَا مُعَذِّبُ
وَقَدْ زَعَمُوا هَذِي النُّفُوسَ بِوَأَقِيماً	تَشْشَكُلُ فِي أَجْسَامِهَا وَتَهْزُبُ
وَتَنْقُلُ مِنْهَا فَالْسَّعِيدُ مَكْرَمٌ	بِمَا هُوَ لَاقٍ وَالشَّقِيُّ مُشْدَبُ
وَمَا كُنْتَ فِي أَيَّامِ عَيْشِكَ مِنْصَافاً	وَلَكِنْ مَعْنَى فِي حَبَالِكَ تُجَذَّبُ
وَلَوْ كَانَ يَبْقَى الْحَسُّ فِي شَخْصٍ مَيِّتٍ	لَأَلَيْتَ أَنَّ الْمَوْتَ فِي الْفَمِ أَعْدَبُ

لعمرك ما لي في هذه الحياة أمل أسمو إليه ولا رجاء أطمع فيه . وما لي فيها راحة أبتغيها ولا لذة أكلف نفسي لها العناء . وإني على طول الأيام واختلافها وعلى بقاء الدهر وخلوده ، لمجدب من كل خير ، برىء من كل صالحة . وما أرى أن لشيء في هذه الحياة حظاً من سرور ، ولا أن في هذه الدنيا مصدراً لا بتهاج . إنما هي حزن قد ضرب أطنابه ومدّ رواقه على كل شيء . ألم تر إلى المغرورين المفتونين كيف يسمون صياح الحمام غناء وتغريداً وقد كان خليقاً أن يسمى بكاء وإعوالاً !

فإنّ حوادث هذه الحياة كثيرة ، ومعظمها على الناس فظ غليظ ، وأقلها الحسد الشفيق . فما أجدر أصوات هذه الحمام أن تكون بكاءً على المكروبين ورثاء للمنكوبين ! وكيف ينعم الإنسان بحياة أو يسعد بلذة وهو لا يرى حوله إلا أديباً إلى مأدبة الموت ، مدعواً إلى مائدته ، مكرهاً على أن يغشاها ويتزود منها !!

لعمرك ما بي نجعةٌ فأرومها وإني على طول الزمان لمجدب

حملت على الأولى الحمام فلم أقل يغنى ولكن قلت يبكى ويندب
 وذلك أن الحادثات كثيرة وغالبهن الفـَظُّ لا المتحدِّب
 وكلُّ أديبٍ أَى سيدعى إلى الردى من الأدب لا أن الفتى متأدب

٤١

ويح الإنسان ! ما أشدَّ غروره وأكثر الرياء فيه ! ما أعم
 انخداعه بالأسماء والأشكال ، وأقل اطلاعه على الحقائق واعتباره
 بالمواعظ ! ! لقد قام منه في المحاريب أناس يعظون ويخوفون
 وينذرون ويبشرون ، ففتنه مقامهم وخدعه منطقهم . ولو أنه
 حقق فيهم النظر وأجاد عنهم البحث ، لما وجد بينهم وبين
 أولئك الشَّربِ يـُطَرَّبون أنفسهم بالألحان ويغذونها بابنة ألحان
 فرقاً ولا خلاقاً .

فإن صلاة لا يراد بها إلا الكيد والرياء لا تنفع صاحبها
 شيئاً ولا تغنى عنه قليلاً ولا كثيراً . وربما كان متعمدا المعصية
 أقرب إلى الله من متكلف الطاعة .

كلُّ في نفسه ضال جائر ، يسلك إلى الفناء المطلق سبيلا قد

سلكها الناس من قبله . هنالك في تلك الغاية الخالدة يستوى
 التقى والشقى ويألف الخير والشرير . ألا فلتعرفوا أنفسكم أيها
 الناس ، ولتكفوا من غروركم ؛ فإنما أنتم مادة تتشكل أشكالا
 مختلفة ، وتتصور صوراً متباينة ، لا تفخروا ! فما أعرف لكم في
 الفخر حقاً ، إنما أنتم من الفخار خلقتم وإلى الفسّخ تعودون ،
 ألا ربّ فاخر منكم قد ملأ منه الفخر ، وقد أولع بما يقدمه إليه
 الناس من المدح والثناء ، قد عاد إلى أصله ورجع إلى مادته بعد
 حين ، واتخذ الناس منه الآنية ببتذلونها في الطعام والشراب
 متنقلين بها من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر .

ويحي له ! لو درى ما سيصنع به أو عرف أنه سيتغرب بعد
 موته ، فتنقل الآنية المتخذة من جسمه في الأقطار والأقاليم ، لما
 عني بالفخر ولا هام به ، ولما كدّ نفسه وأشقاها فيما تكلفه الحياة
 من آمال وأخطار .

لعل أناساً في الحارِيب خوّفوا بأي كناس في المشارب أطرّبوا
 إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها فتاركها عمداً إلى الله أقرب
 فلا يمسّ فخاراً من الفخر عائدٌ إلى عنصر الفخار للنفع يضرب
 لعل إزاء منه يصنع مرةً فيأكل فيه من أراد ويشرب
 ويحمل من أرض لأخرى ومادري فواهماً له بعد البلى يتغرب

ما بال أناس يؤثرون على أنفسهم ، فيشَقَّون ليسعد الناس ، ويكدُّون ليرتاح غيرهم ، معتمدين على قضايا كاذبة ، متمسكين بقواعد شائعة ، لا يؤيدها عقل ولا يدعمها دليل ، قد خلطوا بين الحقوق ولم يحسنوا تقدير الأمور ، فزعموا أن إكرام الصديق واجب ، وأن إيثاره بالفضل حق محتموم ، وذلك شيء لا شك فيه ، ولكن إكرام نفسى بنبغى أن يكون أوجب على وألزم من إكرام غيرى .

لقد ضلَّت العقول وسفَهت الأحلام . وأقسم ما أرى فى الإنسان إلا خليقاً بالدم حريئاً بالعيب ، سواء فى ذلك الفقير الممتهن والملك ذو الجلال .

ليت هذا النجم المتألق ، وهذا البدر المنير ، يعقلان فيعجبا لما وقع فيه الإنسان من خطل الآراء ، وسفه الأحلام .

إذا كان إكرامى صديقى واجباً فإكرام نفسى لا محالة أوجب

وأحلف ما الإنسان إلا مُدَمِّمٌ
أخو الفقر والمليك المحجَّب
أيعقِل نِجَمَ الليل أو بدرِ تِمِّهِ
فيصبحَ من أفعالنا يتعجب

٤٣

لقد قدَّر علىَّ البقاء ، وحجب عني الغيب ، فأنا بالبقاء
كـدِّفٌ ، وبما مضى جاهل . وربما كان الموت خيراً لى وأبقى
علىَّ من الحياة . وربما كان موت الإنسان إدناءً له من ربه ،
لقد نحب البقاء خوفاً من الموت . ولعمري ما البقاء إلا سمٌّ نافع
قد ملئ بأنواع الأمراض والأسقام وألوان الآفات والعلل .
ولو أن البقاء على كراهته ميسور ، والخلود على آلامه متاح
لقد كان لنا أن نرغب فيه ، ولكن الموت واقع والحمام محتوم ،
سواء في حكمه المقيم والظاعن ، والحاضر والبادي ، أجل ! إن
الموت لواقع لا بد منه ، وإنما نحن لهذه الأرض غداء ، تطلبنا
على أن نكون لها طعاماً وريئاً ، كما نبتذل نحن غيرنا لهذين
الغرضين .

إن الإنسان لمغرور مخدوع ، وإنه على ذلك لكذوب مفتر .
لم يدع شيئاً إلا تناوله بكذبه ، حتى إن الشمس لم تسلم من خطل

أُمِّيَّة بن أَبِي الصَّلْت ، فزعم أنها لا تشرق حتى ينالها الضرب
والإيذاء . لقد صغُرَت العقول وقصرت الأنظار . ولقد كان حقاً
على هؤلاء الناس أن ينظروا إلى هذه الشمس وأمثالها من
الكواكب والنجوم من حيث هي عاملة على إهلاكهم مجدّة
في إفنائهم . فما أرى أن هذا الهلال قد حذب وعطف إلا
ليكون رمحاً يطعنون به . وما أرى أن هذا الصباح قد استطال
وأضاء إلا ليكون سيفاً مسلواً على رؤوسهم ، يُورد كلا منهم
حوض المنون إذا انقضى أجله وحانت مدّته .

بقيت وما أدري بما هو غائبٌ لعل الذي يمضي إلى الله أقرب
تودُّ البقاء النفس من خيفة الردى وطول بقاء المرء سمٌّ مَجَرَّبٌ
على الموت مجتاز المعاشر كلهم مقيمٌ بأهليه ومن يتغرب
وما الأرض إلا مثلنا الرزق تبغى فتأكل من هذا الأنام وتشرب
وقد كذبوا حتى على الشمس أنها تهبان إذا حان الشروق وتضرب
كأن هلالاً لاح للطعن فيهم حناه الردى وهو السنان المَجَرَّبٌ
كأن ضياء الفجر سيفٌ يسُلُّه عليهم صباحٌ بالمنايا مدرَّبٌ

٤٤

اذْهَبُوا أَيُّهَا الْأَغْنِيَاءُ دُورَكُمْ بِالنُّضَارِ الْوَهَّاجِ ، وَزِينُوهَا بِمَا
 شِئْتُمْ مِنْ بَدِيعِ الرِّيشِ ؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ عَنْهَا ذَاهِبُونَ وَلَهَا تَارِكُونَ .
 مَا أَرَى إِلَّا أَنْ فِي أَجْسَامِكُمْ قَبَسًا مِثْلَ أَضَاءِ فَلَا بَدَّ أَنْ
 يَطْفِئَهُ الْمَوْتُ وَيَخْمِدَهُ الرَّدَى ، فَمَا التَّهَابُ إِلَّا إِلَى حِينٍ ، وَمَا
 اشْتَعَالَه إِلَّا إِلَى مَدَى .

أَتُذْهِبُ دَارُ النُّضَارِ وَرَبُّهَا يَخْلُفُهَا عَمَّا قَلِيلٍ وَيَذْهَبُ
 أَرَى قَبَسًا فِي الْجِسْمِ يُطْفِئُهُ الرَّدَى وَمَادُمْتُ حَيًّا فَهُوَ ذَا يَتْلَهُبُ

٤٥

مَا أَخْلَقَ النَّفْسَ بِاللُّومِ ! وَمَا أَحْرَاها بِالتَّثْرِيبِ ! وَمَا أَحْدَرَ
 اللَّيِّبَ الْعَاقِلَ وَالْحَكِيمَ الْحَازِمَ أَنْ يَمْنَحَهَا مِنْهُمَا حِظًّا غَيْرَ مُقْطُوعٍ
 وَعَطَاءٍ غَيْرٍ مُجْدُودٍ . فَقَدْ كَلِفْتُ بِمَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مِنْ بَاطِلٍ ،
 وَحَرَصْتُ عَلَى مَا لَهَا مِنْ زِينَةٍ فَانِيَةٍ وَنِعْمَةٍ غَيْرِ خَالِدَةٍ . وَلَيْسَتْ

أدرى ما الذى يكلف به الإنسان من الثروة والغنى ، وهو يعلم أنه من التراب خلق وإلى التراب يعود ، ما أجد حرص ابن التراب على الغنى والإتراب إلا حمقاً . وما أرى شغف ابن الفناء بالخلود والبقاء إلا سفهاً .

لقد آن للعقول الضالة أن تهتدى ، وللنفوس الغافلة أن تفيق وللآذان الصم أن تسمع ؛ فما زالت هذه الحياة منذ كانت تنطق بكل لغة وتعرب بكل لسان ، مبرهنة على ما اشتملت عليه من شر ، ومشيئة إلى ما شغفت به من سوء .

لقد اختبرتها فأحسن اختبارها . وبلوتها فأثقت بلاءها ، لقد أحطت بأسرارها وظهرت على خبيثتها ؛ فما أرى فيها شيئاً أنكره أو أعجب له أو تدهشنى غرابته ، على حين أرى الحمقى المضللين والبله المغفلين تفجؤهم منها فاجئة الخير أو الشر لم يكن لهم بها عهد ، فيقضون العجب ويلجئون فى الدهش والاستغراب .

على رسلكم أيها الناس ! إنما خيركم من هذه الحياة لباطل وزور ، وإنكم حين تعجبون به لتعجبون بشىء لم يقم على قاعدة ولم يعتمد على أصل ولا حكمة . إنما هى حركات حمق ونزوات خطل ، ما ينبغى للعاقل أن يرجو منها خيراً أو ينتظر منها نفعاً .

ما أرى دنياكم هذه إلا أشد حمقاً وأكثر خطلاً من دجاجة ليس لها حلم راجح ولا عقل صحيح ، قد حُرِّمت رزاق الحركة ووقار المشية ، فهي نزاعة وثابة ، وزقة طائشة ، تحكمها المصادفة أكثر مما يحكمها التدبير . فما أجدر العالم بها باليأس منها والقنوط من مستقبل أمرها !

أيها الكليل بالحياة المشغوف بالبقاء ! لقد تيسمت لك هذه الدنيا واستأثرت بلبك ، فهمت بها من حيث ينبغي أن تصد عنها وأن تستبدل ببكاء الرغبة فيها بكاء الرهبة منها . إنك لتتوهم العلة المهلكة والداء المميت . إن حركة الشمس من المشرق إلى المغرب ليست إلا مقربة لأجلك ومقصرة لحياتك . فكر في أمرك وأحسن تدبير نفسك ، تجد أن أنفاسك التي تتنفسها وحركاتك التي تتحركها مستلذةً بها ذوق الحياة مستعذباً بها طعم العيش ، ليست إلا مفنية لك ، تباعد ما بينك وبين المهد ، وتقارب ما بينك وبين اللحد . ذلك قضاء واقع وحكم نافذ ، ليس لك منه عاصم ولا نصير . أتري أن سهيلاً هذا النجم المتلألئ في السماء الذي هو أخرى منك بالبقاء وأدنى منك إلى طول المدة ، واجدٌ له من الحوادث نصيراً ومن الكوارث ملجأً ؟ كلا ! ولكنها عقول ضالة وأنظار قصيرة ، ونفوس سبقتها إلى الهدى تلك الإبل الجادة في

سقى الأرض ، والبقر العاملة فى حرثها .

عجباً لكم أيها الناس ! لقد اطمأننتم إلى الحياة واستغنتم
إلى لذاتها ، فما منكم إلا مغرور يملؤه الأمل ويحدوه الرجاء . لقد
أمنتم سطوة لا تؤمن ، وركنتم إلى ما لا ينبغي أن تركنوا إليه .
لقد كان حقاً عليكم أن تفرقوا من مطلع النهار ومقدم الليل ،
وأن تسيئوا الظن بحياة ما أراها إلا مرغبة فى الموت مغرية بحبه
محرضة عليه . تصروا من آمالكم ، وآثروا أنفسكم بالدعة
والراحة حتى تنقضى أيامكم القليلة .

أغمدوا سيوفكم واركزوا رماحكم ، ولا يبلغ منكم حب الحياة
والشغف بها أن يتعمجل بعضهم منايا بعض . أريحوا أنفسكم !
لا يقتل بعضهم بعضاً ؛ فإن للموت الفطرى يداً أمهر من أيديكم
فى القتل ، وحساماً أمضى من سيوفكم فى الهام ، وسناناً أثقب
من أسنتكم للصدور ، أريحوا أنفسكم من هذا العناء ؛ فإن الموت
سير يرحب بكم من بعض . كلكم ميت ، وكلكم تارك أصدقاءه
وأخلائه ، لا يحفلون به ولا يأسفون عليه . وما هى إلا ساعة
وداعه ثم يعودون من اللهو واللعب ومن الغنى والمجون إلى ما كانوا
فيه :

غدوت على نفسى أثرب جاهداً وأمثالها لام اللبيب المثرّب

إذا كان جسمي من تراب ما له
وما زالت الدنيا بأصناف ألسن
إذا أغربت يوما برزء على الفتى
وجربت بها أم الوليد لطامع
يتحرق لمن يهوى الحياة بكائه
وما زففس إلا يباعه مولداً
فهل لسهيل في معدك ناصر
وأهدى إلى نهج الهدى من معاشر
ألا تفرق الأحياء مما بدا لها
وشف بقاء صرت من سوء فعله
فشم صارماً واركنز قناة فللردى
أفخص لها مات وأرمتي بأسهم
أرى مطعم الرمس اللهم خليله

إليه فما حظي بأني مسترب
تبين عن غير الجميل وتعرب
فليست على نفسي بما حسم تغرب
ويأس من أم الوليد المجرب
إذا لاح قرن الشمس أوحين تغرب
ويدني المنايا للنفوس فتمقرب
إذا أسلمته للحوادث يعرب
نواضح تسنؤ أو عوامل تكرب
وقد عمها بالفجر أزرق مغرب
أهش إلى الموت الزؤام وأطرب
يد هي أولى بالحمام وأدرّب
وأطعن في قلب الحميس وأضرب
سياكل من بعد الخليل ويشرب

ما أحرص الناس على تصديق الغنى والثقة بصاحب الثراء !
قد أقبلت عليه الأيام فأسبغت عليه من النعمة ثوباً ضافياً خلا بآ
لم يكدر يظهر فيه صاحبه حتى خلب العقول والألباب ، فخيّل

إليها أن باطله حق ، وكذبه صدق ، وضلاله هدى .

حدثني بما شئت من تضليل وتغدير ، وأوهمني بما استطعت
من سطوة وسلطة ، وخيل إلى أنك تملك نفعي وضري وتقدر
على خيري وشري ؛ فإنك عندي كاذب غير صادق ومائن غير
أمين . لقد فقدت القدرة فما تستطيع عملا وما تقدر على شيء .
إن أنت في الحياة إلا عيب مقهور مستذل ، قد خيل إليه أنه
قادر مختار فعال . لقد خدعك الخيال وكذبتك المنى . أظهر
النسك والعبادة ، وأعلن الهدى والطاعة ، وتجاف بين أيدي
الناس عن نعيم الحياة ولذاتها ، وحدثنا أنك وفي بالعهود حافظ
لغيب الصديق ، فما أنت في ذلك إلا مختلق منتحل . إنك لمتزهد
بين أيدينا عن لحم الحيوان ، ولكننا نكاد نلمس بأيدينا قرمما
إلى لحم الإنسان ، ولا سيما إن كان صديقا أو خليلا .

إذا أقبل الإنسان في الدهر صدقت أحاديثه عن نفسه وهو كاذب
أتوهمني بالمكر أنك نافعي وما أنت إلا في حبالك جاذب
وتأكل لحم الخيل مستعذبا له وتزعم للأقوام أنك عاذب

٤٧

ألا لا تغبط بمنعمًا بنعمته ، ولا تحسد سعيداً على سعادته ؛
 فليس في الحياة ما يغبط به ولا في العيش ما يُحسَد عليه . بثست
 الحياة تملؤها اللذة وتفعمها النعمة ثم يعقبها الموت والهلاك !
 أجل ! ليس في الحياة شيء يُحسَد . فما أجَد الحسن الذي
 هو أخص مميزاتِها وأوضح الدلائل عليها إلا موقعاً لصاحبه في
 السوء ومنتهياً به إلى المكروه . وكيف تُحسَد الحياة أو يُرغب فيها
 وما أرى صاحبها إلا غرضاً مستهدفاً لجيش من الزمان يعمل
 ويجد في عمله للفناء ، من غير أن يسمع له لب ولا صخب .
 أف لقصر العقول وسفه الأحلام ! لقد أغرقنا في الغرور ،
 وتعلقنا بصغار الأمور ، حتى لو عقلت الأرض أو فهمت فرأت
 ما نحن فيه من ترك للنافع وتشبث بالضرار ، ومن عدول عن
 كبار الأمور إلى صغارها ، لقضت العجب مما نحن فيه من
 حمق وسخف .

نرجو السعادة ونكلف بها ، وإنما نرجو متعذراً ونكلف
 بمحال . وإنما السعادة ألا نوجد وقد وجدنا ، وألا نخلق وقد

خلقنا . فما حرصنا على ما لا سبيل إليه ! وما رغبنا فيما لا قدرة عليه ! وهل رأيت شهراً من الشهور قد ضاق بنفسه وأحب أن يستبدل به غيره ، فودّت جمادى لو أنها رجب .

ألا إن الشقاء محتوم لا مفرّ منه ، والشر موجود لا مندوحة عنه . وكلّ ما أظهر الناس من حب للخير أو حرص على المعروف ، وكل ما أعلنوا من نسك وطاعة أو زهد وعبادة ، فليس إلا ضرورياً من الرياء وألواناً من الخديعة ، ساقطهم إليها غرائزهم ، وأكرهتهم عليها طبائعهم ، فهم كالعود لا يلحى نفسه وإنما يلحاه الناس . لم يرغبوا في الخير وإنما اضطروا إلى إظهاره ، ولم يكلفوا بالبر وإنما لجئوا إلى انتحاله . لقد يبهرك نسك الناس فتحسبه إنما تنسك للطاعة ، ويعجبك احتجاب المحتجب فتظنه إنما احتجب للعبادة . كلا ! ما تنسك من تنسك إلا للخداع ، وما احتجب من احتجب إلا ليخلو بالانكراء .

آيتها النفس الضيقة بما في هذه الحياة من شرور ، المتبرّمة بما في هذا الناس من آثام ، خفّضى عنك ورفهى عليك ؛ فتلك طبيعة الحياة ، وهذه غريزة الناس ، لا سبيل إلى تغييرهما ولا قدرة على إصلاحهما ، ولا حزم إلا الصبر على احتمالهما والتجملد على ما يأتيان به من جرائم وسيئات .

لا يَغْبِطَنَّ أَخُو نِعْمَتِي بِنِعْمَتِهِ
والْحَسُّ أَوْقَعَ حَيًّا فِي مَسَاعِدِهِ
لَوْ تَعْلَمُ الْأَرْضُ مَا أَفْعَالُ سَاكِنِهَا
بَدَأَ السَّعَادَةَ أَنْ لَمْ تَخْلُقِي امْرَأَةً
وَلَمْ تَتَّبِ الْخِيَارَ كَانَ مُنْتَجِبًا
وَمَا احْتَجَبْتَ عَنِ الْأَقْوَامِ مِنْ نَسْلِ
قَالَتْ لِي النَّفْسُ إِنِّي فِي أَذَى وَقَدْ

بِئْسَ الْحَيَاةُ حَيَاةٌ بَعْدَهَا الشَّجَبُ
وَاللِّزْمَانُ جَيُوشٌ مَا لَهَا لَسَجَبُ
لَطَالَ مِنْهَا لَمَّا يُؤْتَى بِهِ الْعَجَبُ
فَهَلْ تَوَدَّ جَسَدَايَ أَنْ هَارِجِبُ
لَكِنَّكَ الْعُودُ إِذْ يُلْحَقِي وَيَنْتَجِبُ
وَإِنَّمَا أَنْتَ لِلنَّكَرَاءِ مُحْتَجِبُ
فَقُلْتُ صَبِرًا وَتَسْلِيمًا كَذَا يَجِبُ

٤٨

عَجِبْتُ لِلنَّاسِ يَعِيبُونِي حَيًّا ، وَيَشْنُونَ عَلَيَّ مَيِّتًا ، لَا يَحْمَدُونَ
صَاحِبَ الرَّأْيِ إِلَّا حِينَ يَغِيبُ عَنْهُمْ شَخْصُهُ ، فَلَا يَسْرَهُ مِنْهُمْ
حَمْدٌ وَلَا يُرْضِيهِ مِنْهُمْ ثَنَاءٌ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَدَّوْا إِلَيْهِ حَقَّهُ وَعَرَفُوا لَهُ
صَنِيعَتَهُ ، لَكَانَ لَهُ مِنْ رِضَاهُمْ عَنْهُ وَثَنَاءُ لَهُمْ عَلَيْهِ وَاسْتِجَابَتُهُمْ لِدَعَائِهِ
فِي حَيَاتِهِ مَشْجَعٌ عَلَى النَّصِيحِ لَهُمْ وَمَرْغَبٌ لَهُ فِي هِدَايَتِهِ . وَلَكِنَّا
جَمِيعًا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مَرْضَى مُعْتَلُونَ ، دَاوْنَا حُبَّ النَّفْسِ ، وَعَلِمْنَا
الْحَرَصَ عَلَى الْحَيَاةِ . وَهَذِهِ الْعِلَّةُ وَذَلِكَ الدَّاءُ هُمَا اللَّذَانِ يَوْقَعَانِنَا

فما ذكره من كفر النعمة وجحود الحميل .

أعيبوني حياءً ثم قام لهم
نحن البرية أمسى كلناد نيفاً
مثنٍ وقد غيبوني إن ذا عجب
يحب دنياه حباً فوق ما يجب

٤٩

لا يخذعك من الناس عدوبة الحديث وحلاوة المنطق ؛
فإنك تعاني من أخلاقهم دون ذلك عشرة مرة وعذاباً أليماً . وإنما
أخلاقهم شرٌّ لا خير فيه ، وإنما ألفاظهم زينة كاذبة تنم على
ما دونها من كذب ورياء .

إنهم لعشاق أسماء وأخلاء ألفاظ ، ليس لهم في المعاني
والحقائق نظر صحيح ؛ فهم كذبة منافقون . يسمون النجم
والهلال والفرقد والسماك ، وما لهم في هذه التسمية علة مفهومة
ولا باعث معقول . قد عظمت آمالهم ، وصغرت أعمالهم ، فتعلقوا
بأهداب الشمس يبتغون الخير ، وإنما يتعلقون في الحقيقة
بأسباب الشر والإفك ووسائل الغي والفجور .

أَخْلَاقُ سُكَّانِ دُنْيَانَا مُعَذِّبَةٌ وَإِنْ أَتَيْتَكَ بِمَا تَسْتَعِذُّ بِالْعَذَابِ
 سَمَوْا هَلَالًا وَبَدْرًا وَالْهِنْدَى وَضَحَّى وَفَرَقْدَ أَوْسَمًا كَمَا شَدَّ مَا كَذَبُوا
 وَلَمْ يَنْظُرْ بِجِبَالِ الشَّمْسِ مِنْ نَظَرٍ إِلَّا لَهُ فِي جِبَالِ الشَّرِّ مَجْتَذَبٌ

٥٠

لَقَدْ اشْتَمَلَ الضَّعِيفُ عَلَى النَّاسِ ، حَتَّى إِنْ أَحَدُهُمْ لَتَعْرِضَ
 لَهُ الْحَاحَةُ هُوَ إِلَيْهَا مُضْطَرٌّ وَعَلَيْهَا حَرِيصٌ ، وَقَدْ سَنَحَتْ لِنَيْلِهَا
 الْفُرْصَةَ ، وَلَكِنْ الْحَيَاءُ ، وَهُوَ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الضَّعِيفِ ، يَمْنَعُهُ وَيَحُولُ
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَرِيدُ . ذَلِكَ الضَّعِيفُ يُسَلِّمُ بِكَ فَتَقْرِيهِ ظَهْرًا ، حَتَّى
 إِذَا أَمْسَى اللَّيْلُ فَسَأَلَتْهُ عَنْ مِيلِهِ إِلَى الطَّعَامِ وَرَغْبَتِهِ فِيهِ ، أَنْكَرَ
 ذَلِكَ وَزَعَمَ أَنَّهُ شَبْعَانٌ مَمْتَلِئٌ ، وَإِنَّهُ فِي الْحَقِّ لَسَاغِبٌ حَرِبٌ ،
 وَجَائِعٌ لَغْبٌ . فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ وَالْبِرِّ بِهِمْ ،
 فَأَرْزَلَفَ إِلَيْهِمْ إِحْسَانُكَ وَبِرُّكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَشَاوِرَهُمْ فِيهِ ؛ فَإِنْ
 مَشَاوَرْتَهُمْ إِيَّاهُمْ فِي ذَلِكَ ضَارَّةٌ لَكَ وَهُمْ : تَضُرُّكَ لِأَنَّهَا تَمْنَعُكَ
 شَيْئًا تَشْتَهِيهِ ، وَتَضُرُّهُمْ لِأَنَّهَا تَحْمِلُهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ وَالضَّعْفِ عَلَى
 الْحَرَمَانِ وَسُوءِ الْحَالِ .

أَحْسِنْ إِلَيْهِمْ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَقَدِّمْ إِلَيْهِمْ مَا وَجَدْتَ .

لا تصغر على الإحسان حقيراً، ولا تزدر هيناً . فحسبك من
 الإحسان إلى الجائع أنك أخدمت جوعه وأطفأت سغبه ؛ فأما
 إلذاذه بألوان الطعام المختلفة الطيبة فشىء فوق الحاجة تتحين له
 الفرصة وتتربص به الطاقة والمقدرة .

لاتسأل الضيف إن أطعمته ظُهُراً

بالليل هل لك في بعض القرى أرب

فإنّ ذلك من قول يلدنه
 لاأشتهى الزاد وهو الساغب الحرب
 قدّم له ما تأتّى لا تؤمره
 فيه ولو أنه الطرثوث والصرب

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

تفتح للقارئ العربي نافذة على آفاق الفكر الغربي

فتقدم في مجموعة

نوابغ الفكر الغربي

ترجمة لكل عقل نابغ جبار بزغ في سماء الغرب وانبسطت منه
الأنوار على مختلف البلاد والأجيال . يتحدث عن كل منهم مختص
بالموضوع خبير فيه تنزخر بهم أقطار العروبة .

صدر من هذه المجموعة

- | | | |
|----------------|------------------|-------------------|
| ١ - نيتشة | ٢ - برتراند راسل | ٣ - برجسون |
| ٤ - بسكال | ٥ - أفلاطون | ٦ - جون ستوارت مل |
| ٧ - ديفد هيوم | ٨ - شيلر | ٩ - تايلور |
| ١٠ - ولیم جیمس | ١١ - جون ديوى | ١٢ - ديكرت |
| ١٣ - باركلي | ١٤ - سان سيمون | ١٥ - كولردج |
| ١٦ - جون لوك | | |

ثمان الكتاب بين ٢٠ ، ٤٠ قرشاً

خذ المعارف دارالمعارف

PJ
7750
.A25
Z86
1965

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036761320

0036761320

JUL 24 1968

